من مذكرات

تشي جيفارا

من مذكرات
تشي جيفارا

يوميات دراجة نارية

من النص الأصلي ليوميات تشي جيفارا

كتبها : أرنستو شيي جيفارا

أعدها للعربية

يوسف أبو الحجاج الأقصري

يوميات دراجة نارية

هـذه هـي يوميات تشتي جيفارا بطبعها ذات السحر الـخـاص نظرًا لشخصيته التي ملأت القرن العشرين وفاضت أطيافها على الألفية الثالثة...

هذه اليوميات التي كتبها تشي جيفارا خلال رحلته في أرجاء أمريكا اللاتينية عـام 1952م قطع خلالها مع صديقه (البرتو غرانادو) على دراجة نارية مسافة 4500 كيلو متر...

وكانت هذه الرحلة هي التي ولج منها الطبيب الشاب جيفارا إلى فضاء أمريكا اللاتينية وصولاً إلى العالم بأسره ليعود من هناك بالشعلة التي صهرت روحه النقية ومزجتها بآلام الشعوب المنهوبة.

هـذه الرحلة التي وضعت جيفارا على الطريق الـذي اختاره، طريق الفداء فهل نستطيع قراءة يوميات جيفارا الشاب بعيدًا عن صورة الأسطورة التي تخطت الزمن بإنسانيتها المذهلة وكفاحيتها العظيمة؟!

- لقد أثبتت رحلة جيفارا في أمريكا اللاتينية عن شخصيته الفريدة كحاكم وثائر وصاحب قضية إنسانية..

- لقد استطاع (جيفارا) أن يجذب شباب العالم العربي لقراءة

يومياته... لماذا... أدعوكم لقراءة تلك اليوميات للتعرف على أسباب لمعان نجم (جيفارا).

المؤلف

يوسف أبو الحجاج الأقصرى

الاسكندرية ـ العجمى ـ مصر

تقديـم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله وبعد.

بين يديك عزيزي القارئ إصدار خاص جدّاً عن أرنستو جيفارا من خلال يومياته التى تروي أحداث رحلة (أرنستو جيفارا) المدونة فى أرشيف تشي الشخصى عن التجارب والمغامرة المتعاقبة والرائعة لرحلة اكتشاف ذاته عبر أمريكا اللاتينية وهذه الرحلة تكشف عن شخصية أرنستو جيفارا وتطلعاته وآماله وأفكاره.

- بدأ أرنستو كتابة هذه اليوميات في ديسمبر (كانون الأول) عام 1951م عندما شرع مع صديقه ألبيرتو جرانادو في رحلتهما التي انتظراها طويلاً من بيونس إيرس فى الأرجنتين حيث عبر الأطلسي وعبر بانما (بنما) وخلال الأنديز وصولاً إلى (تشيلي) ومنها شمالاً إلى (بيرو) و(كولومبيا) وأخيرًا (كاركاس).

كانت رحلة مثيرة يحاول تشي جيفارا أن يكتشف من خلالها نفسه وحقيقته وقدراته.

- أُعيد تدوين هذه التجارب لاحقًا من قبل أرنستو نفسه كراوٍ يُقدم نفسه للقارئ من خلال رؤية أعمق في حياة تشي جيفارا خاصة في مرحلة ليست معروفة كثيرًا من مراحل حياته، وليكشف تفاصيل عن شخصيته وخلفيته الثقافية ومهاراته ويمكن للقارئ أن يشهد أيضًا التغير غير العادي الذي يحدث له وهو يكتشف أمريكا اللاتينية ويلج إلى صميم قلبها ويطور حسّاً متناميًا بهوية أمريكا اللاتينية تجعله نذير التاريخ الجديد لأمريكا اللاتينية ولكل ثوار العالم.

مع هذا الإصدار تمنياتي بقراءة ممتعة.

والله الموفق والمستعان

المؤلف

يوسف أبو الحجاج الأقصرى

الاسكندرية ـ العجمى ـ مصر

(1)
أرنستوتشي جيفارا موجز سيرته

أرنستوتشي جيفارا
في سطور

● ولد أرنستو جيفارا دي لاسبرنا أحد أيقونات القرن العشرين وفق اختيار مجلة تاتم في (روزاريو) الأرجنتين يوم 14 يونيو وحزيران عام 1928م.

● قام بعدة رحلات في أمريكا اللاتينية خلال دراسته في بيونس إيرس، وبعد تخرجه مباشرة من دراسة الطب بما في ذلك رحلة 1952م مع البيرتو جرانادو على دراجة نوتون النارية والموصوفة في يوميات هذه الرحلة والتى اكتشف من خلالهما نفسه وقدراته.

● كان أرنستو جيفارا قد إندمج في النشاط السياسي ويعيش في جواتيمالا عندما أُطيح في عام 1954م بحكومة (خاكو بو أربينيز) المنتخبة إثر عملية عسكرية أشرفت عليها وكالة المخابرات الأمريكية.

● هرب أرنستو جيفارا إلى المكسيك وقد أصبح في غاية الراديكالية وإثر اتصال جرى في جواتيمالا بحث جيفارا عن جماعة

كوبية ثورية منفية في مكسيكوسيتي في يوليو تموز 1955م، قابل جيفارا فيدل كاسترو وانضوى في الحال في حملة حرب العصابات للإطاحة بالديكتاتور الكوبي (باتيستا) وأطلق عليه الكوبيون اسم (تشي) وهو لقب شائع الاستخدام في الخطاب في الأرجنتين بمعنى السيد ومن يومها أصبح اسمه (تشى جيفارا).

● في 25 نوفمبر (تشرين الثاني) عام 1956م أبحر جيفارا إلى كوبا على متن اليخت (جرانما) كطبيب لمجموعة حرب العصابات التي أطلقت شرارة النضال الثوري المسلح في جبال (سبيرا مايسترا) الكوبية، وفي غضون أشهر أصبح جيفارا أول ضابط جيش متمرد رغم استمراره في إسعاف الجرحى من المقاتلين والجنود والأسرى من جيش (باتيستا).

● في سبتمبر أيلول عام 1958م لعب أرنستوتشي جيفارا دورًا حاسمًا في الهزيمة العسكرية لباتيستا بعد قيادته هو وكاميلو سبينفويغوس طوابير مقاتلي رجال العصابات صوب الغرب من سبيرا مايسترا.

● بعد هروب (باتيستا) في يناير (كانون الثاني) عام 1959م أصبح جيفارا قائدًا رئيسًا في الحكومة الثورية الجديدة وكان في البدء يعمل كرئيس دائرة التصنيع في المؤسسة الوطنية للإصلاح

الزراعي ، ثم وزيراً الصناعة، كما كان القائد المركزي للمنظمة السياسية التي أصبحت في عام 1965م الحزب الشيوعي الكوبي.

● بالإضافة إلى هذه المسؤوليات قام جيفارا بتمثيل الحكومة الكوبية الثورية، وترأس وفودًا عدة وتكلم في الأمم المتحدة ومنتديات دولية أخرى في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ودول المنظومة الاشتراكية.

● اشتهر (جيفارا) لدى شعوب العالم الثالث كخطيب مشبوب العاطفة واضح العبارة خاصة في مؤتمر (بونتا ديل أستي) في أرجواي.

● كانت غايته منذ انضمامه إلى الحركة الكوبية الثورية هي مساعدة الثوار في كل أنحاء العالم لذا غادر (جيفارا) في أبريل (نيسان) 1965م كوبا لقيادة حرب عصابات دعمًا للنضال الثوري في الكونغو... ثم عاد سرًا إلى كوبا في ديسمبر 1965م ليعد القوة لحرب عصابات ثورية أخرى في بوليفيا ، ووصل جيفارا بوليفيا في نوفمبر (تشرين الثاني عام 1966م، وكانت خطة جيفارا الثورية هي أن يتحدى الديكتاتورية العسكرية في ذلك البلد (بوليفيا) حتى يحرض على قيام حركة ثورية قد تمتد إلى كل أرجاء قارة أمريكا اللاتينية.

● في 8 أكتوبر (تشرين الأول) عام 1967م جُرح وأسر من قبل القوات البوليفية المضادة التي دربتها الولايات المتحدة الأمريكية.

● وفي اليوم التالي لأسره واعتقاله وهو التاسع من أكتوبر (تشرين الأول) عام 1967م تم قتل (أرنستوتشي جيفارا) وأخفى جثمانه تمامًا واستمر هذا الاختفاء نحو ثلاثين عامًا.

● وفي عام 1997م تم اكتشاف رفات تشي جيفارا وأُعيد إلى كوبا حيث شيدوا له صرحًا تذكاريّاً في سانتا كلارا وسط كوبا، وحيث انتصر هناك جيفارا مع مجموعة الثوار الكوبيين في معركة عسكرية رئيسية إبان الحرب الثورية الكوبية.

سنوات في حياة جيفارا

لقد مرت سنوات أصبحت علامات في سيرة حياة الثوري أرنستو جيفارا ويمكن اختصارها في النقاط الآتية:

1 - **عام** 1928م

ولد أرنستو جيفارا في 14 يونيو (حزيران) في روزاريو الأرجنتين، وكان الطفل الأول لأب من الطبقة الوسطى يدعى أرنستو جيفارا لينشي وأم تدعى سيليا دي لاسيرنا.

2 - **عام** 1932م

انتقلت عائلة جيفارا من (بيونس إيرس) عاصمة الأرجنتين إلى بلدة (التاجراسيا) وهو منتجع مياه معدنية قرب قرطبة وذلك بعد إصابة أرنستو جيفارا بمرض الربو الذي منعه من الانتظام في الدراسة حتى بلغ سن التاسعة من عمره.

3 - **عام** 1948م

غير أرنستو جيفارا مساره التعليمي الجامعي الذي بدأه بدراسة

الهندسة ليلتحق بكلية الطب جامعة بيونس ايرس حيث داوم أيضًا بجانب دراسته على العمل في سلسلة وظائف بالساعات بما في ذلك عيادة لعلاج الحساسية.

4 - **في عام** 1950م

شرع (أرنستو جيفارا) في الإعداد رحلة طولها 4500 كلم في شمال الأرجنتين على دراجة بخارية.

5 - **في عام** 1951م

في أكتوبر 1951م يقر (أرنستو جيفارا) وصديقه ألبيرتو جرانادو خطة لقيادة دراجة ألبيرتو النارية المسماه (الجبارة) إلى أمريكا الشمالية، وكان جرانادو قد درس الكيمياء الحيوية وكان متخصصًا في الجذام، وكان إخوته الأصغر سنّاً أصدقاء أرنستو جيفارا في المدرسة، وغادرا (قرطبة) في ديسمبر كانون الأول متجهين أولاً إلى بيونس إيرس لوداع عائلة أرنستو جيفارا، ونشرت المغامرات التي مروا بها في هذه الرحلة وبعدها والتي دونها أرنستو جيفارا بنفسه وتشكل متن هذا الكتاب لأول مرة تحت عنوان (يوميات رحلة) أو (يوميات الدراجة النارية).

6 - **في عام** 1953م

في هذا العام تخرج أرنستو جيفارا كطبيب وشرع في رحلة أخرى مباشرة تقريبًا حول أمريكا اللاتينية أخذته إلى بولينيا وبيرو والأكوادور وبنما وكوستاريكا وجواتيمالا، حيث قابل أنتونيو لويز ثائر كوبي شاب وشهد أرنستو جيفارا الثورة البوليفية، ونشرت تفاصيل هذه الرحلات تحت عنوان (مرة أخرى) أو (على الطريق ثانية).

7 - **عام** 1954م

في هذا العام أصبحت آراء أرنستو جيفارا السياسية راديكالية جدّاً وبخاصة عندما شاهد في جواتيمالا الإطاحة بحكومة جاكوبو أربينيز المنتخبة ديمقراطيًا بمساندة من القوات الأمريكية عندها فر جيفارا إلى المكسيك ثم حيث اتصل بجماعة ثورية كوبية من المنفيين ليبدأ نشاطه الثوري وهو في المكسيك تزوج (هيلدا جاديا) من بيرو والتي أنجبت له ابنته (هيلدا جاديا) وذلك فى نفس العام..

8 - **عام** 1955م

في كوبا بعد مقابلة فيديل كاسترو وافق أرنستو جيفارا على الانضمام إلى الجماعة الثورية التي نُظمت لشن حرب عصابات ضد ديكتاتورية (باتيستا) وصار اسمه منذ ذلك الوقت (تشي) وهو

اسم شائع عند الكوبيين ومستعار بمعنى السيد وأصبح اسمه (تشى جيفارا).

9 - **عام** 1956م

في نوفمبر 1956م أبحر كطبيب مصاحب للقوة البحرية على اليخت (جرانما) وقد أظهر تشي جيفارا مقدرة عسكرية فائقة كمقاتل وقائد لمجموعة من الرجال...

10 - **عام** 1958م

في ديسمبر 1958م قاد (تشي جيفارا) القوات الثائرة ضد باتيستا في سانت كلارا وسط كوبا.

11 - **عام** 1959

في فبراير 1959م مُنح تشي جيفارا الجنسية الكوبية تقديرًا لمساهمته في تحرير الجزيرة وفي نفس العام تزوج (أليدا مارش) التي أنجبت له فيما بعد أربعة أبناء وفي نفس العام تقلد عدة وظائف مدنية في كوبا في مؤسسة الإصلاح الزراعي وفي نوفمبر من نفس العام أصبح رئيس بنك كوبا الوطني وكان يوقع الأوراق النقدية بكل بساطة باسم (تشي) كنوع من ازدراء المال.

12 - **عام** 1960م

قام في ذلك العام برحلة إلى الاتحاد السوفيتي وجمهورية ألمانيا الديمقراطية وتشيكوسلوفاكيا والصين وكوريا الشمالية ممثلاً للحكومة الثورية الكوبية وحيث وقع اتفاقيات تجارية هناك.

13 - **عام** 1961م

في ذلك العام عُين تشي ليرأس وزارة الصناعة الجديدة وفي أغسطس (آب) من نفس العام ترأس وفد كوبا إلى منظمة الدول الأمريكية في بونتا ديل استي في أورجواي وهناك كانت مواجهته لمعاهدة الرئيس الأمريكي كيندي للتقدم وهي المعاهدة التي شجبها بشدة.

14 - **عام** 1962م

في ذلك العام جرى دمج منظمات (كوربا) الوطنية في منظمة واحدة وأانتخب (تشي جيفارا) عضوًا في المجلس الوطني، وفي نفس العام زار (تشي جيفارا) الاتحاد السوفيتي للمرة الثانية.

15 - **عام** 1964م

في ذلك العام قرر (تشي جيفارا) القيام برحلة شاملة إلى أفريقيا وقبل الشروع في رحلته هذه ألقى تشي جيفارا خطابًا في الأمم المتحدة في ديسمبر (كانون الأول) من العام نفسه.

16 ـ 1965م

في ذلك العام قاد (تشي جيفارا) حملة دولية إلى الكونغو دعمًا لحركة التحرر التي أسسها باتريس لومومبا وسرعان ما عاد جيفارا في نهاية العام إلى كوبا (سرّاً) ليعد لمهمة ثورية جديدة في بوليفيا.

17 ـ 1966م

وصل تشي جيفارا إلى بوليفيا في نوفمبر (تشرين الثاني) متخفيًا وذلك ليبدأ مهمة ثورية هناك.

18 ـ 1967م

في أبريل (نيسان) نشر تشي جيفارا رسالته الثورية إلى (ثوار القارات الثلاث) والتي كتبها تشي جيفارا مطالبًا بخلق أكثر من فيتنام في أكثر من مكان في العالم، وبدأ العمليات القتالية ضد القوات البوليفية العاملة تحت إمرة وتعليمات من واشنطن، وفي 8 أكتوبر من العام نفسه انفصل جزء من مقاتلي جماعته عن الكتيبة الرئيسية ووقع هو ومعه 17 مقاتلاً في كمين حيث جُرح وأسر ويقال إنه قتل في اليوم التالي من قبل القوات البوليفية ودفن في قبر مجهول مع جثامين عدد من المقاتلين الثوار واعتبر يوم 8 أكتوبر (تشرين الأول) من كل عام البطولي لحرب العصابات في كوبا.

19 ـ 1997م

في ذلك العام تم تحديد مكان رفات (تشي جيفارا) في بوليفيا وأعيد إلى كوبا حيث تم وضع جثمانه هناك وصناعة نصب تذكاري في سانتا كلارا الذكرى المناضل الثورى (تشى جيفارا)..

(2)
تواريخ مسار رحلة جيفارا على الدراجة النارية مع صديقه ألبيرتو

تواريخ مسار رحلة جيفارا على الدراجة النارية مع صديقه ألبيرتو من الأرجنتين

بدايه الرحله:

- 30 ديسمبر / كانون الأول 1951م من قرطبة إلى بيونس إيرس

فى 4 يناير (كانون الثاني) 1951 مغادرة بيونس إيرس

- 6 يناير (كانون ثاني) الوصول إلى فيليا خيسيل.
- 13 يناير (كانون ثاني) الوصول إلى ميرامار.
- 14 يناير (كانون ثاني) الوصول إلى نيكوتشيا
- من 16 – 21 يناير (كانون ثاني) في الطريق إلى باهيا بلانكا.
- 22 يناير (كانون ثاني) في الطريق إلى تشويال تشويل
- 25 يناير (كانون ثاني) الوصول إلى تشويل.
- 29 يناير (كانون ثاني) الوصول إلى بيدر ديل أغيللا.
- 31 يناير (كانون ثاني) الوصول إلى سان مارتين دي لوس أنديز.
- 8 فبراير (شباط) الوصول إلى ناويل وابي.
- 11 فبراير (شباط) الوصول إلى سان كارلوس دي باريلوتشي ثم الإعداد للوصول إلى تشيلى.

(الوصول لتشيلي)

- 14 فبراير (شباط) الوصول إلى بيويا (تشيلي).
- 18 فبراير (شباط) الوصول إلى تيموكو.
- 21 فبراير/ شباط الوصول إلى لاوتروا.
- 27 فبراير (شباط) الوصول إلى لوس أنجيلس.
- 1 مارس (آذار) الوصول إلى سانتاغو التشيلي.
- 7 مارس (آذار) الوصول إلى فالباريسو.
- من 8 – 10 مارس (آذار) في الطريق إلى سان أنتونيو.
- 11 مارس (آذار) الوصول إلى أنتوفاغاستا.
- 12 مارس (آذار) الوصول إلى باكيدانو.
- من -13 15 مارس (آذار) في الطريق إلى شوشيكمان.
- من 15 – 20 مارس (آذار) طريق الوصول إلى أيكيكي مرورًا بـ (وتوسكو – لاريكا – أفنتورا – وشركة النترات).
- من 20 – 22 مارس آذار الطريق إلى أريكا.

الوصول إلى بيرو

- 24 مارس (آذار) الوصول إلى تاكنا (في بيرو).
- 25 مارس (آذار) الوصول إلى تاراتا.
- 26 مارس (آذار) الوصول إلى بونو.
- 27 مارس (آذار) الإبحار في بحيرة تيتيكاتا.
- 28 مارس (آذار) الوصول إلى خولياكا.
- 30 مارس (آذار) الوصول إلى سيكواني.
- من 31 مارس – 3 أبريل (نيسان) في الطريق إلى كوزكو.
- 4 ، 5 أبريل نيسان في الطريق إلى ماتشوبتشو.
- 6 ، 7 أبريل (نيسان) في الطريق (إنبكاي).
- 13 أبريل (نيسان) الوصول إلى وانكاراما.
- 14 أبريل (نيسان) الوصول إلى (وامبو).
- 15 أبريل (نيسان) الوصول إلى وانكايو.
- من 16 حتى 19 أبريل (نيسان) في الطريق إلى أنداويلس.
- من 22 – 24 أبريل (نيسان) في الطريق إلى إياكوتشو.

- يومي 25 ، 26 أبريل (نيسان) في الطريق لامرسيد.

27- أبريل (نيسان) الوصول إلى (أوشايمبا).

- 28 أبريل (نيسان) الوصول إلى شان ريمو.

- 30 أبريل (نيسان) الوصول إلى تاراما.

- من 1 حتى 17 مايو (أيار) في الطريق إلى (ليما).

- 19 مايو (آيار) الوصول إلى بوكالبا.

- من 25 – 31 (مايو) الإبحار على متن لاسينيا (رافد للامازون).

- 1 يونيو حزيران وحتى 5 يونيو حزيران في الطريق إلى إيكتيوس.

- 6 ، 7 يونيو حزيران الإبحار عبر المسيسبي إلى مستعمرة الجذام في سان بابلو.

- من 8 – 20 يونيو (حزيران) الوصول إلى سان بابليو والاستراحة هناك.

- 21 يونيو حزيران الإبحار على الطوافة مامبو تانغو في الأمازون والإعداد للوصول إلى كولومبيا.

الوصول إلى كولومبيا

- من 23 يونيو حزيران حتى 1 يوليو تموز في الطريق إلى ليتسيا.

- 2 يوليو (تموز) مغادرة ليتسيا بالطائرة.

- من 2 – 10 يوليو (تموز) الوصول إلى بوغوتا.

- من 12 حتى 14 يوليو (تموز) الوصول إلى كوكوتا.

والإعداد للوصول إلى فنزويلا.

الوصول إلى فنزويلا

- 14 يوليو (تموز) الوصول إلى سان كريستوبال.

- 16 يوليو (تموز) الوصول إلى باركبسيميو.

- من 17 – 26 يوليو (تموز) في الطريق إلى كراكاس وهنا افترق تشي وألبيرتو حيث ذهب تشي جيفارا إلى الولايات الأمريكية.

- 27 يوليو (تموز) وصول جيفارا إلى ميامي وجولته بالولايات المتحدة لمدة شهر.

- أول أغسطس (آب) عودة جيفارا إلى أهله في قرطبة.



(3)
بداية الرحلة من قرطبة إلى بيونس إيرس في 30 ديسمبر 1951م

رحلة جيفارا

يقول أرنستوتشي جيفارا: ليست هذه قصة بطولة خارقة أو مجرد سرد شخص ساخر على الأقل لم أقصد أن تكون كذلك إنها لمحة حياتين سارتا متوازيتين لفترة من الزمن بآمال متماثلة وأحلام متقاربة.

يمكن لرجل في تسعة أشهر من حياته أن يفكر في أشياء كثيرة من أرفع التأملات الفلسفية.

- في انسجام تام مع صديق على دراجه بوخارية ويمكن إذا كان في الوقت نفسه مغامرًا عاش سلسلة من الأحداث المثيرة الاهتمام بالآخرين وقد يقرأ ما دونه فى مثل هذه اليوميات كيفما اتفق إنها رحلة لاكتشاف الذات.

وعليه ألقيت قطعة النقد المعدنية في الهواء دارت عدة مرات وحطت أحيانًا على وجه وتارة على الوجه الآخر وابدأ فى كتابة كل الأمور على لساني وأسرد بلغتي ما شهدته عيني من المرجح في الواقع هذا ممكن وليس هناك من عند لأن هاتين الشفتين يمكن أن تصفا ما رأته العينان فعلاً هل كانت رؤيتنا كلها غير كاملة قط عابرة

أو ليست دائمًا حسنة الاطلاع؟ هل كنا غير موفقين في أحكامنا؟ حسنًا لكن هكذا فسرت الآلة الكاتبة هذه النبضات الزائلة التي رفعت أصابعي إلى مفاتيح حروفها غير أن هذه النبضات قد ماتت الآن ليس هناك مَنْ هو مسؤول عنها.

الشخص الذي كتب هذه اليوميات تعرف لحظة لمست قدماه تراب الأرجنتين على الشخص الذي أعاد تبويبها وصقلها أنا لم يعد له وجود على الأقل لست ذلك الشخص الذي كان فى هذا التجوال هنا وهناك في «أمريكتنا» اللاتينية التى أصبحت معتقلا للثورة وللثوار أصبحت شخصاً آخر.

وستصادف تصوير فوتوغرافي والصورة الواضحة المدهشة لمنظر طبيعي التي من الجلي أنها ملتقطة ليلاً في ضوء بدر كامل يكشف السر الكامن خلف الرؤيا السحرية «للظلام في القمر» ولن يكون قُراء هذا الكتاب مطلعين جيدًا على حساسية شبكية عيني التي بالكاد أستطيع الاحساس بها بنفسي لذا لن يكون بوسعهم مراجعة ما يقال وفق صورة فوتغرافية لاكتشافي في أي وقت بالضبط التقطت «صوري» ما يعنيه هذا أني إذا قدمت لكم صورة وقلت مثلاً إنها التقطت في الليل يمكنكم إما تصديقي أولاً وهو ما لا يعني لي كثيرًا لأنه إذا حدث ولم تكونوا على دراية بالمشهد للذي صورته

في يومياتي سيكون من الصعب عليكم أن تجدوا بديلاً للحقيقة التي أخبركم عنها لكن سأترككم الآن مع ذاتي الرجل الذي كنت أبحث عن حقيقة ذاتى من خلال تلك الرحلة على الدراجه البخارية....

(آرنستو تشى جيفار)

تحذيرات مسبقة

يقول تشى جيفارا كان صباح يوم من شهر أكتوبر / تشرين الأول أبدأ الإعداد لتلك الرحلة مستفيدًا من عطلة السابع عشر منه وذهبت إلى قرطبة[1] كنا في بيت ألبيرتو جرانادو نشرب كاكاو حلوة تحت كرمة وتُعلق على الأحداث الراهنة في «الحياة بنت الكلبة» هذه ونصلح الدراجة «الجبارة» [2] كان صديقى ألبيرتو يندب حظه حقيقة أن عليه وظيفته في مستعمرة الجذام في سان فرانسيسكو (ديل شاينار) وضآلة راتبه في المستشفى الإسباني.

وأنا كنت قد تركت أيضًا عملي لكني على عكسه كنت سعيدًا بالمغادرة ومع ذلك شعرت بعدم الراحة أكثر من أي وقت مضى ولأني أملك روح حالم كنت متعبًا بشكل خاص من كلية الطب والمستشفيات والامتحانات.

(1) كانت آنذاك عطلة وطنية احتفالًا بذكرى خروج خوان بيرون من السجن عام 1945م كان بيرون رئيس الأرجنتين من 1946م وحتى 1955م ومن 1973م حتى موته سنة 1974م.

(2) La poderosall: دراجة جرانادوالنارية بورلون 500 التي تعني حرفيّاً «الحارة».

كان السفر والمغامرة يلفتان طرقات حلم يقظتنا فى بلادٍ نائية بحار مدارية دار فى خيالى عبور المحيط والذهاب عبر كل آسيا وفجأة برز السؤال منسابًا كما لو كان جزءًا من تخيلاتنا:

«لم لا تذهب إلى أمريكا الشمالية؟ »

«أمريكا الشمالية ؟ لكن كيف؟»

«على متن الجبارة يا رجل» لقد اتخذنا قرارنا فى رحلة عبر أمريكا اللاتينية.

هكذا اتخذنا قرار الرحلة ولم يحد قط عن المبدأ الرئيسي المطروح آنذاك صديقى ألبيرتو انضم إلينا أخوة ألبيرتو في شرب المتن ونحن على وشك الانتهاء من وضع مخططنا بعدم التخلي إطلاقًا عن الفكرة في تحقق هذا الحلم وهكذا بدأ العمل الرتيب في ملاحقة تأشيرات الدخول والشهادات والوثائق والتغلب على العقبات العديدة التي وضعتها الأمم العصرية في طرق الرحالة المحتملين لحفظ ماء الوجه قررنا القول إننا ذاهبون إلى تشيلي كاحتياط ليس إلا.

كانت مهمتي الرئيسية قبل المغادرة أن أمتحن في أكبر عدد ممكن من المواد وعلى ألبيرتو تحفيز الدراجة للرحلة الطويلة غابت عنا في تلك اللحظات ضخامة مسعانا كان كل ما بوسعنا رؤيته غبار الطريق

أمامنا ونحن فوق الدراجة نلتهم الكيلومترات طائرين إلى الشمال، كانت مغامرة نحن فى حاجة إليها ليكشف كل منا حقيقة ذاته أو بمعنى أدق يكتشف كل منا نفسه من خلال تلك الرحلة الاستكشافية الرائعة.

اكتشاف المحيط

يقول تشى جيفارا فى مذكراته:

القمر في تمامه يطل صورة ظليلة قبالة البحر يكسو الأمواج بانعكاسات فضية على تراث المد والجزر المستمرين بأفكارنا الواضحة ونحن جالسان على كثيب رملي كان البحر دائمًا بالنسبة لي مؤتمنًا على الأسرار صديقًا يمتص كل ما يُباح له ولا يُفشي قط منها شيئًا ودومًا يُقدم خير النصح ويمكن أن تفسر أصواته الطافحة ماتريده أنت من تفسير، بالنسبة لألبيرتو هو منظر جديد مشوش بغرابة والحدة التي تتابع بها عيناه كل موجة تتجمع وترتفع ثم تمهد على الشاطئ تعكس دهشته ألبيرتو المقترب من الثلاثين عاماً يرى الأطلس (المحيط الأطلسى) أول مرة ويغمره الاكتشاف الذي يعني عددًا لامتناهيًا من الدروب إلى كل أطراف العالم يملأ الهواء العليل الحواس بقوة البحر وحالته يتحول كل شيء إثر لمسته حتى كمباك[1] بأنفه الصغير الغريب الشامخ يحدق في الأشرطة الفضية المنتشرة

(1) comeback الاسم الإنجليزي المستعار الذي أطلقه إرنستو على الكلب الصغير الذي يأخذه إلى صديقته «تشيشيا» التي تقضي عطلتها في ميرامار.

أمامه عدة مرات في الدقيقة.

كمباك رمز وكائن قادر على البقاء حيّاً في آن: رمز الوحدة التي تريد عودتي ، رغم حظه التعس سقطتان عن الدراجة (إحداهما طار فيها من المقعد الخلفي) وإسهال بطنه المتواصل وحتى أن داسه مرة حصان إنه كمباك الكلب الصغير الذى رافقنا فى جزء من هذه الرحلة.

نحن في فيلياغيسيل شمال مارديل بلاتا نحظى بكرم ضيافة بيت عمي ونراجع أول 1200 كلم من الرحلة أنها الأسهل رغم أنها المرحلة الأطول بالمسافات لا ندري إن كنا سنصل إلى هناك أم لا لكننا نعلم أن بلوغ ذلك سيكون صعبًا على الأقل هكذا كان انطباعًا في تلك المرحلة ألبيرتو يضحك على خططه البالغة التفاصيل بدقة والتي ينبغي أن نكون وفقا لها قد اقتربنا من النهاية بينما نحن في الواقع كنا قد بدأنا منذ برهة فقط.

وغادرنا (خيسيل) محملين بمؤونة من الخضار وعلب اللحم المحفوظ «تبرع» بها عمي وطلب منا أن نرسل له برقية من باريموتشي إذا وصلنا إلى هناك كان يمكن أن يشتري برقم البرقية ورقة يانصيب وبدا لنا أنه غاية التفاؤل في تلميح سحر الآخرون من أن الدراجة ستكون ذريعة جيدة للسفر ركضًا.. إلخ وبالرغم من تلك التهكمات كان القومي عليَّ إثبات أنهم مخطئون وأننا ومعنا (كمباك) سنصل سالمين.

ويحافظ كمباك طوال الطريق الساحلي على نبضاته الملاحية خارجًا دون أن يصاب بأذى من اصطدام الدراجه بالمطبات يصعب التحكم بالدراجة النارية مع وجود ثقل إضافي على الحامل الكائن خلف مركز الجاذبية بنحو يرفع العجل الأمامي وتجعلنا أدنى هفوة في التركيز نطير في الهواء كنا نتوقف عند قصاب ونشتري بعض اللحم للشواء وقليلاً من الحليب للكلب الذي لا يحاول تذوقه وينتابني قلق على صحة الحيوان الصغير أكثر من المال المدفوع ثمنًا للحليب وظهر أن اللحم لحم حصان وإننا لم نقدر على تناوله ضجرًا، ألقى البرتو بالقطعة بعيدًا ومن المدهش أن يلتهمها الكلب بنهم دفعة واحدة ألقى له بقطعة أخرى ويتكرر الأمر ثانية حميته في عدم تناول الحليب تنتهي في غمرة صخب هكذا كان حال كمباك إلى أن وصلنا ميرامار..

وقفة حُب

يقول تشى جيفارا فى مذكراته عن تلك الرحلة عبر أمريكا اللاتينية بالدراجة النارية:

لا ترمي هذه اليوميات في الواقع إلى سرد تلك الأيام في ميرامار حيث وجد كمباك بيتًا جديدًا يقطن مع مقيم واحدفقط جاء كمباك إليه خصيصًا توقفت رحلتنا مؤقتًا في ملاذ التردد وخضعت لكلمات تمنح القبول وتفرض الالتزام. هكذا كان حالنا بعد أن غادرنا ميرامار.

رأى ألبيرتو الخطر وتخيل نفسه وحيدًا في طرق أمريكا اللاتينية وإن لم يرفع صوته بتاتًا وجدنا أنفسنا وحيدين وحين غادرت منتصرًا أو هكذا حسبت صدحت كلمات (أو ترد سيلفا) في أذني:

سمعت رشاش ماء على القارب

قدميها العاريين

وأحسست الغسق الجائع

في وجهينا

قلبي متأرجح بينها

وبين الشارع الطريق
لا أدري أين وجدت القوة
لأحرر نفسي من عينيها
أنسل من ذراعيها
مكثت باكية من خلل المطر والزجاج
مدثرة بالأسى والدموع
مكثت غير قادرة على البكاء
انتظر سآتي
لأمضي معك[1]

فى ميرامار كانت هناك مشاعر تداعبنى.. وشككت لاحقًا إن كانت قطعة الخشب الكافية على حق في قولها «ربحت» حين يلقى بها المد على الشاطئ الذي تريد غير أن هذا كان لاحقًا ولا أهمية له الآن امتد اليومان اللذان خططت لهما إلى ثمانية وباختلاط مذاق الحلاوة المرة للوداع مع نفسي الردىء المتأصل شعرت أخيرًا أني بالتأكيد أرتقي في رياح المغامرة نحو عوالم تصورت أنها أغرب مما هي عليه في الواقع إلى مواضع تخيلت أنها قد تكون عادية أكثر مما

(1) ميغيل أوتيروا سيلفا – شاعر وروائي يساري من فنزويلا ولد سنة 1908م.

هي عليه.

أذكر يوم جاء صديقي البحر إلى حصني ليخلصني من الإهمال الذي لعنت به كان الشاطئ مهجورًا ورياح باردة تهب عليه رأسي مستريح في الحصن يربطني إلى هذه الأرض ويهدهده كل ما في الجوار هام الكون برمته بإيقاع مفرغًا لنبرات صوتي الداخل فجأة جلبت هبة ريح قوية صوت بحر مختلف رفعت رأسي دهشة لم يبد شيئًا إنذار خاطئ استلقيت على ظهري عائدًا مرة أخرى في أحلامي إلى الحضن المداعب من ثَّم وللمرة الأخيرة سمعت تحذير المحيط دق إيقاعه الفسيح المرتج الحضن الكائن داخلي مهددًا سكونه المهيب.

شعرنا بالبرد فتركنا الشاطئ هاربين من الوضع الرافض تركي وحيدًا رفض البحر على امتداد الشاطئ الصغير لامباليًا بناموسه السرمدي مغرقًا ملاحظة احتراسه تحذيره لكن الرجل العاشق (رغم استخدام ألبيرتو كلمة أكثر إفراطًا وأقل صقلاً) ليس في حالة ليصغي إلى مثل هذا النداء من الطبيعة في جوف عربة بويك ضخم كان ذاك الجانب البرجوازي في عالمي الذي ما زال تحت التكوين.

الوصية الأولى لكل مكتشف جيد هي: في الجملة نقطتان نقطة الإقلاع ونقطة الوصول إذا كانت غايتك جعل النقطة النظرية الثانية تتطابق مع نقطة الوصول الفعلية لا تتكر بالوسائل لأن الرحلة قضاء

فعلي ينتهي عندما تنتهي وهناك عدة وسائل كما أن هناك أساليب مختلفة «للإنهاء» بعبارة أخرى الوسائل لامتناهية.

تذكرت اقتراح ألبيرتو: «السوار» وإلا أنت لست من تعتقد أنك بالفعل».

اختفت يدا تشيشينا في تجويف يدي.

قلت: «تشيشينا ذاك السوار يمكنني أخذه ليهديني السبيل ويذكرني بك؟»

إنها مشاعر جاءت حين رأيت صديقتى (تشيشينا) التى كانت تقضى عطلتها فى ميرامار.



قطع آخر صلة

غادرنا وتوقفنا في (نيكوشيا) حيث يتدرب صديق قديم لألبيرتو من أيام الدراسة قطعنا المسافة بسهولة في الصباح ووصلنا في وقت مناسب لتناول غداء من لحم مشوي قوبلنا بالترحاب من الصديق وإن لم يكن كذلك من زوجته التي لاحظت الخطورة الكامنة في أساليبنا البوهيمية الثابتة.

«أمامك سنة واحدة فقط للتأهل كطبيب ومع ذلك تسافر؟ أليست عندك فكرة متى ستعود؟ لكن لماذا؟».

لم نملك إجابات محددة على أسئلتها وهذا ما أرعبها كانت دمثة معنا غير أن عداءها كان جليّاً رغم علمها (على الأقل أظن أنها علمت) أن النصر النهائي كان بجانبها وإن زوجها غير قابل «للتحرر».

زرنا في (مادربل بلاتا) طبيبًا «صديقًا» لألبيرتو انضم إلى حزب [بيرون] وعلى الرغم من كل ما يترتب على ذلك من امتيازات بقي ذاك الطبيب في نيكوتشيا مخلصًا لمهنته فيه مع ذلك كنا متباعدين لم يكن دعم المتطرفين قط موقفًا سياسيّاً يمكن الدفاع عنه بالنسبة

لي كما أنه كان يفتقر لأي أهمية بالنسبة لألبيرتو الذي كان مقربًا في وقت ما من بعض «القادة» الذين احترمهم.

عندما ركبنا الدراجة ثانية وبعد أن شكرنا الزوجين على الثلاثة أيام من الحياة الهانئة انطلقنا إلى (باهيا بلانكا) شاعرين بوحدة أكثر لكن بحرية أرحب كان هناك أصدقاء في انتظارنا أيضًا أصدقائي هذه المرة قابلونا بدورهم بمودة وحرارة وكرم قضينا بضعة أيام في هذا الميناء الجنوبي حيث أصلحنا الدراجة وأقمنا في المدينة دون هدف محدد. كانت تلك آخر الأيام التي لم يكن علينا التفكير فيها بالمال. بعد ذلك توجب اتباع حمية قاسية من اللحم وعصيدة دقيق الذرة والخبز للتوفير في مالنا الضئيل. أصبح طعم الخبز الآن مصحوبًا «بتحذير» لن آتي بيسر بعد حين أيها العجوز» فالتهمناه بحماس أشد أردنا مثل الإبل تعزيز مخزون الرحلة القادمة.

وأصبت في الليلة السابقة لمغادرتنا بالسعال وارتفاع درجة الحرارة وعليه تأخرنا يومًا في (باهيابلانكا) وأخيرًا في الثالثة بعد الظهر غادرنا في لهب شمس حارقة وما إن وصلنا إلا أن الكثبان الرملية حول ميدانوس حيث ازدادت حرارة واستمرت الدراجة بحملها سيئ التوزيع في الوثب مما صعب السيطرة عليها وداومت العجلات في الدوران خاض ألبيرتو معركة شاقة ضد الرمال مصرّاً

على الانتصار الشيء المؤكد أننا وجدنا أنفسنا نجلس مرتاحين على الرمال ست مرات قبل أن نصل أخيرًا إلى الأرض المنبسطة مع ذلك نجحنا في الخروج وهذه حجة رفيقي الرئيسية في ادعاء الانتصار على ميدانوس (الكثبان الرملية).

أخذت المبادرة من تلك النقطة زائدًا السرعة لتعويض الوقت الضائع الثمين غطى رمل ناعم جزءاً من منعطف الطريق ويوم أسوأ حادث في المرحلة كلها لم يصب ألبيرتو بأذى لكن قدمي حشرت وحرقتها أسطوانة المحرك قليلاً مخلقة ذكرى سيئة بقيت وقتًا طويلاً لأن الجرح لم يلتئم.

وأجبرنا انهمار مطر شديد على البحث عن ملجأ في مزرعة غير أن الوصول إليها استدعى صعود 300 متر من درب موحل وسقطنا طائرين مرتين أخريين كان استقبالهم رائعًا لكن حصيلة التجربة الأولى في دروب غير سالكة كان نذير خطر : تسع حوادث في يوم واحد على أسرة المخيم الأسرة الوحيدة التي سنعرفها من الآن فصاعدًا مستقلين بجانب «الجبارة» منزلنا الشبيه بالحلزون. ما فتئنا ننظر إلى المستقبل بفرح نافذ الصبر بدا أننا نتنفس بحرية أوسع هواء أخف من هواء المغامرة دارت حولنا في خيالاتنا الهائجة بلاد نائية ومآثر بطولية ونساء جميلات.

رفضت عيناني المتعبتان النوم ودارت فيهما كدوامة قطعتان من الأرض الخضراء ممتلئان عالم الموتى الذي غادرته وخلفته ساخرًا مما يدعى بالتحرر الذي أنشده شدا صورتها إلى هروبي غير العادي عبر أراضي العالم وبحاره.



❀❀❀

علاج الإنفلونزا سرير

تثأبت الدراجة على الطريق الطويل الخالي من الحوادث مللاً وأرسلنا نحن من تعبنا زفيـرًا حولت القيادة على طريق مغطى بالحصى الرحلة الممتعة إلى مشقة بحلول الليل بعد يوم كامل من تبادل القيادة غمرتنا رغبة عارمة بالنوم عوض الاستمرار في بذل الجهد لبلوغ (تشولي تشويل) بلدة كبيرة تسنت لنا فرصة إقامة مجانيةن لذا توقفنا في (بينجامين زورعير) واستقررنا مرتاحين في حجرة في محطة السكة الحديدية حيث هجعنا غير عابثين بالعالم.

استيقظنا باكرًا في صبيحة اليوم التالي لكن حين ذهبنا لجلب الماء لعمل «الشاى» أنتاب جسدي إحساس غريب عقبه ارتعاش طويل بعد عشر دقائق كنت أرتعش بشكل يتعذر ضبطه مثل شخص مسكون لم تقدم حبوب (الكينين) فرقًا يذكر كان رأسي مثل طنبور يدق إيقاعات غريبة وتغيرت ألوان عجيبة دون شكل فوق الجدران وغثيان يائس أفرج قيئًا أخضر اللون.

قضيت اليوم على هذا الحال غير قادر على تناول الطعام نائمًا

على كتف ألبيرتو حتى وصلنا إلى (تشولي تشويل) زرنا هناك الدكتور باريرا مدير المستشفى الصغير وعضو البرلمان استقبلنا بالترحاب وقدم لنا حجرة ننام فيها (وصف لي مجموعة من جرعات البنسلين وفي غضون أربع ساعات انخفضت حرارتي لكن كلما تكلمنا عن المغادرة هز الطبيب رأسه وقال:

«علاج الإنفلونزا هو سرير» (كان هذا تشخيصه) وهكذا قضينا بضعة أيام هناك حيث اعتنى بنا كملوك.

صورني ألبيرتو ملابس المستشفى كنت منظرًا رائعًا: هزيلاً متوردًا عيونًا واسعة ولحية مضحكة لم يتغير شكلها كثيرًا طوال الأشهر التي أطلقتها طوال الرحلة أن الصورة لم تكن جيدة كانت تعبيرًا عن ظروفنا المتغيرة والآفاق التي ترنو إليها متحررين أخيرًا من «الحضارة».

في صباح يوم لم يهز الطبيب رأسه كعادته كان ذلك كافيًا في غضون ساعة كنا مغادرين متجهين غربًا وإلى هدفنا القادم: البحيرات كافحت الدراجة بعد هى الأخرى علامات الإجهاد خاصة في تصليح الأجزاء التي علينا دومًا إصلاحها بقطعة غيار ألبيرتو المفضلة السلك اقتطف جملة من مكانه ما لا أدري من أين ناسيا

إياها إلى أوسكارغالفيز» (1) عندما يمكن لسلك أن يحل مكان قطعه غيار وقال البيرتو لى أعطني السلك لأنه أكثر أمانًا» كانت أيدينا وسراويلنا الدليل الجلي على أننا نتفق مع غالفيز على الأقل في مسألة السلك. وغالفيز هذا هو بطل سباق السيارات الأرجنتينى الذى كان يصلح سيارته بسلك عند تعطلها.

حل الليل قبل قليل ومع ذلك حاولنا الوصول إلى موطن بشري لم تكن أضواء الدراجة القوية تعمل ولم يبد قضاء الليلة في العراء فكرة جيدة كنا نتحرك ببطء مستخدمين مشعلاً يدويّاً حين دوى صوت غريب من الدراجة لم نستطع تحديده لم يلق المشعل اليدوي ضوءًا كافيًا لمعرفة السبب ولم يترك لنا خيار سوى التخييم حيث كنا استقررنا على أفضل ما يمكننا فعله ناصبين خيمنا نازحين داخلها على أمل أن يسكن جوعنا وعطشنا النوم المضني (لم نتناول اللحم لعدم وجود ماء في الجوار) مع ذلك أصبح نسيم المساء العليل في وقت قصير ريحًا عاتية خلعت خيمتنا وعرضتنا لعوامل البرد المزدادة سوءًا أجبرنا على ربط الدراجة بعمود هاتف ألقينا عليها الخيمة لحمايتها واستلقينا خلفها منعنا ما يشبه الإعصار من استخدام فراش التخييم لم تكن ليلة سارة بأي حال من الأحوال غير

(1) بطل سباق سيارات أرجنتيني.

أن النوم تغلب أخيرًا على البرد والريح وكل شيء آخر استيقظنا في التاسعة صباحًا والشمس الحارة فوق رؤوسنا.

اكتشفنا في نور النهار أن الصوت الشائن كان الجزء الأمامى من كابح الدراجة وعلينا الآن إصلاحه على أفضل وجه ممكن حتى نصل إلى بلدة يمكننا فيها لحم القضيب المعدني المكسور حل صديقنا السلك المشكلة مؤقتًا حزمنا أمتعتنا وانطلقنا دون أن ندري بالضبط كم تبعد عن أقرب مكان مأهول ولكن دهشنا حين درنا حول أول منعطف ورأينا بيتًا أحسن أهله استقبالنا وأشبعوا جوعنا بلحم ماعز مشوي لذيذ من هناك سرنا 20 كم إلى مكان يدعى بييدراديل أغيللا حيث تمكنا من لحم القطعة وقررنا لتأخر الوقت قضاء الليلة في بيت الميكانيكي.

باستثناء تسربين صغيرين لم يؤديا إلى خراب كبير في الدراجة استمررنا منطلقين بهدوء صوب سان مارتن لوس أنديز كنا على وشك الوصول وأنا أتولى القيادة عندما حدثت سقطتنا الحقيقية الأولى في الجنوب عند منعطف جميل من الحصباء قرب جدول صغير متدفق كان خراب الدراجة «الجبارة» هذه المرة كافيًا لإجبارنا على التوقف وأسوأ من كل شيء آخر وجدنا أكثر ما كنا نخشاه:

ثقب في الدولاب الخلفي يتطلب إصلاحه إنزال كل الحمولة وحل

السلك المحافظ على «سلامة» معلق الدولاب استغرقنا فى تغيير الدولاب المثقوب (بكسل أعترف به) مدة ساعتين توقفنا في وقت متأخر من بعد الظهر بمزرعة صادف أن استضاف أصحابها أعان كرماء جدّاً عمي في الماضي مدمن ترحال أترسم الآن خطاه سمحوا لنا بصيد السمك في نهر منساب عبر المزرعة ألقي البيرتو بخيطه في الماء وقبل أن يعي ما يجري كان في الطرف الرافض لنهاية صنارته شكل متوهج متقزح اللون في ضوء الشمس سلمون مرقط كقوس قزح سمكة جميلة ولذيذة المذاق (وحتى ألذ عندما تطهى وتتبل ببهارات جوعنا) رحت أحضر السمكة في حين ألقي ألبيرتو المنتشى بانتصاره الأول هذا خيطه مرة أخرى وأخرى في الماء لم تقبل سمكة على الطعم رغم ساعات من المحاولة حل المساء وكان علينا قضاء الليل في مطبخ عمال المزرعة.

في الخامسة صباحًا أشعل الموقد الذي تحيل وسط هذا النوع من المطابخ وامتلاء المكان كله بالدخان تناول عمال المزرعة طعام الإفطار وقذفونا بعبارات السخرية لم يحاولوا التواصل معنا كما هي العادة المتبعة عنه جنس «الأروكان» المستبعد الشاك بعمق في الرجل الأبيض الذي سببت له في الماضي كثيرًا من المصائب ويستمر الآن في استغلالهم أجابوا على أسئلتنا حول الأرض وعملهم

بعبارات قصيره ومهمه مثل «لا أعـرف» أو «ربما» واضعين حدّاً للحديث بسرعة.

سنحت لنا الفرصة لملء بطوننا بكمية كبيرة من الكرز في أننا في الوقت الذي انتقلنا فيه للجوخ أجبرت على الاستلقاء لهضمه تناول ألبيرتو قليلاً كي لا يبدو فظّاً فوق الشجر أكلنا بشراهة كما لو كنا نتسابق من ينتهي أول. نظر أحد أبناء مالك المزرعة ببعض الريبة إلى هذين «الطبيبين» مهلهلي الهندام والجائعين بوضوح لكنه بقي صامتًا وتركنا نأكل حتى أصبنا بالتخمة وصلنا إلى نقطة أجبرنا فيها على السير ببطء كي نتجنب عطل الدراجة مرة أخرى

صلحنا دواسة التشغيل ومشاكل أخرى صغيرة وانطلقنا ثانية إلى سان مارتين دي لوس أنديز حيث وصلناها قبل حلول الظلام.

سان مارتين دي لوس أنديز

يواصل تشى جيفارا وصف رحلته على الدراجه النارية عبر أمريكا اللاتينية فيقول وهو فى طريقه إلى سان مارتين..

تتلوى الطريق بين سفح التلال التي تسير من بداية سلسلة جبال الأنديز ثم تهبط منحدرة حتى تصل إلى بلدة بائسة غير جذابة محاطة بنقيض حاد من الجبال العظيمة الكثيفة المشجرة تجثم قرية سان مارتين على السفوح الخضراء المصغرة الذائبة في أعماق زرقة السماء والبحر وهى لسان مائي ضيق يبلغ عرضه 35 مترًا وطوله 500 كلم حلت يوم «اكتشافها» كمنتجع سياحي مشاكل الطقس والمواصلات فيها وضمن مورد رزقها. وفشل هجومنا الأول على العيادة المحلية فشلاً ذريعًا لكننا أخبرنا أن نحاول التكتيك نفسه مع مكاتب «الحدائق الوطنية» حيث سمح لنا المشرف على الحديقة البقاء في سقيفة معدات حتى وصل الحارس الليلي وكان رجلا ضخما متينا يزن 140 كجم وجهه قاسي كالمسامير لكن عاملنا بلطف وسمح لنا بالطهي في كوخه، ومرت الليلة الأولى بشكل

رائع نمنا في السقفية راضين دافئين فوق القش الضروري بالتأكيد في تلك المناطق حيث الليالي قارسة البرودة.

فى الصباح اشترينا بعض لحم البقر وسرنا على طول ضفة البحيرة في ظل الأشجار الباسقة حيث تكبح البرية تقدم «الحضارة» ووضعنا خططًا لتشييد مختبر في ذلك المكان وعندما انتهت رحلتنا تخيلنا نوافذ ضخمة تستوعب البحيرة كلها شتاء يدثر الأرض بغطاء أبيض ونستخدم زورقًا صغيرًا للانتقال من ضفة إلى أخرى نصطاد السمك من قارب صغير ونقوم بنزهات إلى الغابة شبه العذراء هكذا كانت أحلامنا التى حاولنا تحقيقها.

وبالرغم من كثرة توقفنا أثناء ترحالنا للمكوث في مناطق هائلة زرناها إلا أن غابات الأمازون وحدها قد استحضرت ذلك الجانب عبر المرتجل فينا بقوة كتأثير هذا المكان علينا.

أدري الآن بانسجام مميت مع الحقائق أن مصيري هو الترحال أو ربما من الأفضل القول إن الترحال مصيرنا إذ أن ألبيرتو مثلي مع ذلك ثمة لحظات جميلة جميلة عندما أفكر بشوق عميق في تلك المناطق الرائعة من جنوبنا ربما يومًا وقد أضناني الدوران في العالم أعود إلى الأرجنتين وأستقر في بحيرات الأنديز إن ذلك ليس بشكل نهائي فعلى الأقل وقفة قصيرة في غمرة تنقلي من فهم للعالم إلى آخر.

في الغسق شرعنا عائدين وحلت الظلمة قبل وصولنا ودهشنا فرحين حين وجدنا (دون بيدرو أولاتيو) الحارس الليلي قد أعد شواء رائعًا لنا وابتعنا نبيذًا في المقابل والتهمنا الطعام كأسود للقيام بشيء مغاير كنا نناقش مقدار لذة اللحم وكيف يتسنى لنا الأكل بإسراف كما نفعل في الأرجنتين وعندما أخبرنا (دون بيدرو) أنه قد طُلب منه تنظيم حفل شواء لسائقي سباق سيارات سيجرى في ساحة السباق المحلية يوم الأحد القادم وأراد مساعدين لذا عرض علينا القيام بذلك وقال «تذكروا أنني لا أستطيع الدفع لكما لكن يمكنكما أخذ مخزون من اللحم للأيام القادمة».

بدت فكرة جيدة قبلنا وظيفتي المساعد الأول والثاني في حفل شواء (جراندادي) في جنوب الأرجنتين.

انتظر المساعدان يوم الأحد بنوع من الحماس الديني في السادسة من صباح ذلك اليوم بدأنا العمل في أولى وظائفنا تحميل حطب في شاحنة وأخذه إلى موقع حفل الشواء لم نتوقف عن العمل حتى الحادية عشرة صباحًا حين أعطيت إشارة مميزة ألقى كل واحد مع أثرها بنفسه بنهم على الضلوع اللذيذة المشوية..

كانت الأوامر تصدر من شخص غريب خاطبته باحترام كبير بقولي «سنيور» كلما تفوهت بكلمة حتى قال أحد زملائي العمال:

«أيها الفتى تشي لا تبالغ مع دون بيندون وإلا سيغضب».

«مَنْ دون بيندون؟» سألت بإيماءة قد يقوم بها فتى غير مهذب وكان جواب أن دون بيندون كان السنيور أليس كذلك.

كما في حفلات الشواء كانت هناك كميات هائلة من اللحم لكل فرد لذا منحنا تفويضًا مفتوحًا للاستمرار في مهمتنا علاوة على ذلك نفذنا خطة محسوبة بدقة تظاهرت بأني ثمل يزداد سكرًا ومع كل نوبة غثيان أهرع مترنحًا إلى الجدول وزجاجة نبيذ أحمر مخفية داخل معطفي الجلدي. وبعد خمس نوبات من هذه كان عندنا عدد مماثل من لترات النبيذ مخزنة تحت سعف شجرة صفصاف لتبرد في الماء (عندما انتهى كل شيء وجاءت لحظة حزم الأمتعة في الشاحنة والعودة إلى البلدة حافظت على أداء دوري فى العمل على مضض والتشاحن باستمرار مع دون بيندون لإنهاء أدائي واستلقيت على ظهري فوق العشب غير قادر على القيام بخطوة أخرى اعتذر ألبيرتو ممثلاً دور الصديق المخلص على سلوكي للمدير وتخلف للاعتناء بي عند مغادرة الشاحنة حين اختفى صوت المحرك في البعيد قفزنا متسابقين كمهربين إلى النبيذ الذي سيضمن لنا بضعة أيام من استهلاك يليق بملك.

وصل ألبيرتو أولاً وألقى بنفسه تحت شجرة الصفصاف كان

وجهه كوجه من فيلم كوميدي لم تكن هناك زجاجة نبيذ واحدة إما حالة سكري لم تخدع أحدًا أو أن شخصًا رآني أتسلل إلى هناك مع النبيذ كنا في الواقع مفلسين كالعادة نستعيد في ذهننا الابتسامات التي حيت سلوكي حين أكون ثملاً ونحاول العثور على أثر سخرية القدر التي تمكننا من معرفة اللص دون جدوى قفلنا عائدين إلى البلدة حاملين قطع الخبز والجبن التي تلقيناها وبعض كيلو غرامات من اللحم لتلك الليلة. كنا شبعانين وشاربين جيدًا لكن مع وجود ارتعاشات بين سيقاننا لا بسبب النبيذ بل للحماقة التي وصمونا بها ليس بوسع الكلمات وصف ذلك.

❀❀❀

كان اليوم التالي ماطرًا باردًا فحسبنا أن السباق لن يجرى كنا في انتظار توقف المطر برهة للذهاب وطهي بعض اللحم قرب البحيرة عندما ترامى إلى سمعنا عبر مكبرات الصوت أن السباق سيجرى دخلنا مجانًا كوننا مساعدين في حفل الشواء عبر بوابة المدخل وجلسنا مرتاحين نشاهد سباقًا جيدًا نوعًا ما لسائقي البلاد.

وبينما كنا نفكر في التحرك والنقاش أفضل طريق نتبعه أثناء شرب المثة على باب السقفية وصلت عربة جيب تقل بعض أصدقاء ألبيرتو من (فيلياكونسيبسيون ديل نيو) النائية والأسطورية نوعًا ما تعانقنا بحرارة ومودة وذهبنا مباشرة للاحتفال بملء أحشائنا

بالسائل الخفيف المزيد بالماء كما جرت العادة المبجلة في مثل هذه المناسبات.

دعونا لزيارتهم في بلدة (خونين دي لوس أنديز) حيث يعملون وهكذا ذهبنا مخففين حمولة الدراجة بترك حاجياتنا في سقفية الحدائق الوطنية.

اكتشاف دائري

ويواصل تشى جيفارا سرد أحداث رحلته على الدراجة البخارية عبر أمريكا اللاتينية ويصف بلدة قونين دى لوس أنديز التى زارها قائلا:

بلدة خونين دي لوس أنديز الأقل حظّاً من أختها التابعة على جانب البحيرة تحيا بخمول في ركن منسي من الحضارة وعاجزة عن التحرر من رتابة حياتها الراكدة رغم محاولات إنعاش البلدة ببناء الثكنات التي يعمل فيها أصدقاؤنا أقول أصدقاؤنا لأنهم أصبحوا أصدقائي أيضًا بسرعة هائلة.

كرسنا الليلة الأولى لاستعادة الذكريات البعيدة لما سلف في (فيليا كوتسنيسيون) وزجاجات غير محددة من النبيذ الأمر على ما يبدو ساهم فى تعزز مزاجنا وكان انعدام تدريبي يعني أن عليَّ التخلي عن المسابقة وتشريف فراش حقيقي بالنوم فيه مثل لوح خشبي.

وقضينا اليوم التالي في إصلاح بعض مشاكل الدراجة النارية في ورشة الشركة التي يعمل فيها أصدقاؤنا وفى تلك الليلة أعدوا لنا وداعًا أرجنتينيًا عظيمًا لحم بقر وماعز مشوي مع خبز وصلصة مرق

لحم وسلطة خضار رائعة.

بعد بضعة ساعات من الاحتفال غادرنا بمحاذاة طريق كارو بحيرة أخرى في المنطقة كانت الطريق رديئة وزفرت دراجتنا في الرمال أثناء محاولتي مساعدتها للخروج من الكثبان استغرقتنا فى الخمس كيلو مترات الأولى ساعة ونصف الساعة وتحسنت الطريق لاحقًا ووصلنا (كاروتشيكو) دون عثرة أخرى كانت على ضفاف بحيرة صغيرة زرقاء محاطة بتلال غابات برية ثم في (كارو جراند) توجد بحيرة أوسع لكن من المحزن أن الدوران حولها بدراجة مستحيل لوجود ممر خاص يستخدمه مهربو المنطقة للعبور إلى تشيلي.

تركت الدراجة في كوخ حارس الحديقة الذي لم يكن هناك وشرعنا في تسلق الهضبة المقابلة للبحيرة دنا موعد الغذاء المكون من قطعة جبن وبعض المعلبات المحفوظة فقط مرت بطة محلقة عاليًا فوق البحيرة وحسب ألبيرتو مسافة بُعد الطير وفى غياب الحارس حيث إمكانية دفع غرامة أطلق الرصاص بضربة حظ سديدة (ليس للطير طبعًا) سقطت البطة في البحيرة.

اندلع نقاش في الحال حول مَنْ سيذهب لجلبها خسرت وخضت في الماء، بدا أن أصابع جلية تمسك بكل جسدي وتكبح حركتي كليًا تقريبًا بسبب حساسيتي للبرد عانيت لسباحتي العشرين مترًا ثم

الإياب لجلب ما صاده ألبيرتو من جهة أخرى كانت البطة المشوية المتبلة ببهارات جوعنا كالعادة طبعًا شهية وكانت تستحق كل العناء والجهد الذى بذلناه لاصطيادها..

شرعنا وقد أنعشنا الغداء في التسلق بحماس مع ذلك رافقنا ذباب أحاط بنا دون انقطاع يقرصنا حين تحين له الفرصة كان التسلق مرهقًا لافتقارنا للمعدات المناسبة والتجربة لكن بعد بضع ساعات مضنية بلغنا القمة خاب ظننا لعدم وجود منظر شامل عريض يثير الإعجاب إذ حجبت الجبال المجاورة كل شيء وهناك قمة أعلى في كل صوب نظرنا إليه.

بعد دقائق من تبادل النكات في رفع الثلج التي تتوج القمة انهمكنا في مهمة الهبوط تحثنا حقيقة أن العتمة ستحل بعد حين كان الجزء الأول سهلاً لكن المجرى الذي يهدي درب هبوطنا ازداد انحدارًا جارفًا جانباه ناعمان وصخوره زلقة يصعب السير عليها وتوجب علينا شق طريقنا عبر شجر صفصاف.

وأخيرًا وصلنا منطقة مكسوة بقصبر كثيف وغادرنا قبل حلول الظلام ألف صوت غريب سمعنا ومضينا بالسير في فضاء فارغ مع كل خطوة، فقد ألبيرتو نظارته الجاحظة وأصبح سروالي أسمالاً بالية وصلنا بعد جهد إلى خط الشجر ومن هناك رافق حرص شديد

كل خطواتنا لأن العتمة كانت مطبقة وبلغت حاستنا السادسة ذروتها حين رأيناها هاوية بلا قرار في كل لحظة كان الطريق موحشا ومخيفاً للغاية.

بعد شق طريقنا اللامتناهي في الوحل العميق تعرفنا على الجدول المنساب إلى (كارو) في الحال اختفت الأشجار ووصلنا أرضًا منبسطة تواري فيها حيوان ضخم منطلقًا كنمسة سريعة عبر الجدول جسمه فضي في نور القمر الساطع، طعنت رعشة الطبيعة هذه قلوبنا سرنا الهوينا كي لا تزعج سكون حرم البرية التي نتواصل معها الآن بمودة.

خضنا المجرى المائي الهزيل فذكرتني لمسته بحدة لسعة أصابع الجليد التي أمقتها حتى وصلنا كوخ حارس الحديقة الذي من لطفه قدم لنا المنة وهى شراب شعير وجلد خراف نرقد عليها حتى صباح اليوم التالي.

فى صباح اليوم التالى قدنا الدراجة ببطء عائدين مررنا ببحيرات ذات جمال مهجن مقارنة بكارو حتى وصلنا سان مارتن حيث نقد دون بيندون كل منا 10 بزوس أجر العمل في حفل الشواء بعدها انطلقنا إلى الجنوب.



صورة تذكارية تجمع بين تشى جيفارا والرئيس الراجل جمال عبدالناصر عند زيارة جيفارا لمصر

أمي العزيزة

رسالة بعثها تشى جيفارا إلى والدته وهو فى الطريق إلى بلدة (باريلوتشي) أثناء رحلته على لم دراجة النارية عبر أمريكا اللاتينية

يناير / كانون الأول ١٩٥٢

في الطريق إلى باريلوتش

أمي العزيزة

كما لم يصلك شيء من طرفي لم أسمع أخبارك وهذا ما يشعرني بالقلق لذا حرصت على كتابة السطور هذه لأخبرك عن كل ما جرى لنا بعد يومين من مغادرتنا باهيا بلانكا أصابني مرض رفع حرارتي إلى 40 درجة وأبقاني طريح الفراش لمدة يوم كامل واستطعت في صباح اليوم التالي النهوض لينتهي بي الحال في المستشفى فى منطقة (تسشوى تشول) حيث أعطيت جرعة من دواء غير معروف جدّاً وبنسلين استعدت على أثره عافيتي بعد أربعة أيام وبعدها واصلنا رحلتنا.

ثم وصلنا سان مارتين دي لوس أنديز مستخدمين سعة حيلتنا المعتادة لحل ألف معضلة أزعجتنا في الطريق إلى سان مارتين دي لوس أنديز وهى محاطه بالأشجار وبها بحيرة جميلة تقع في منطقة جميلة وسط غابة بكر ينبغي عليك رؤيتها أنا على يقين أنك ستجدينها تستحق العناء أصبح وجهانا يشبهان تركيبة الكاربورندوم[1] نبحث في كل بيت عن طعام ومأوى وكل ما يمكنهم تقديمه انتهى بنا المقام في مزرعة فوق بوتناوز أصحابها أصدقاء لالبرتو وزرت مستشفى هناك وعالجت بيروني ثمل دومًا وأفضل شئ إننى أستطعت تشخيص ورم في مؤخرة الرأس لمريض علينا الانتظار لنرى ما سيحدث سنغادر إلى (باريلو) في غضون يومين أو ثلاثة وقد عزمنا على السفر بإيقاع ممتع مريح أرسلي لي رسالة تبقى في مكتب البريد لحين استلامها إذا أمكن وصولاً في 10 أو 12 يومًا من شهر فبراير / شباط حسنًا يا أمي الصفحة التالية سأكتبها لتشيشينا (صديقه جيفارا) بلغي محبتي للجميع وتأكدي من إبلاغي إن كان أبي في الجنوب عناقي حار من ابنك (أرنستو)...

(1) مركب شديد الصلابة يستخدم في الصقل والكشط - المترجم.

طريق البحيرات السبع

يقول أرنستو تشى جيفارا:

قررنا الذهاب إلى باريلوتشي عبر طريق البحيرات السبع التي سميت نسبة لعدد البحيرات التي يلتف حولها الطريق قبل بلوغ البلدة.

سرنا أول بضع كيلو مترات على إيقاع الدراجه «الجبارة» الهادئ دون أي إزعاج ميكانيكي جرى وحلول الليل يطاردنا لجأنا إلى حيلة سحب الضوء الأمامي القديم المكسور كي يمكننا النوم في كوخ عامل طريق وهى حيلة ملائمة لأن برد تلك الليلة كان قارسًا بشكل استثنائي حتى أن زائرًا ظهر بعد حين طالبًا استعارة بعض الأغطية لأنه يخيم هو وزوجته على حافة البحيرة وتجمدا من البرد ذهبنا لشرب المنة مع هذين الزوجين الرواقيين[1] اللذين كانا يمكثان قرب البحيرة في خيمة مع بعض حاجياتهم فقط لقد شعرنا بالخجل وسطهم لذا عدنا لنواصل رحلتنا.

انطلقنا ثانية مارين ببحيرات مختلفة اختلافًا كبيرًا كلها محاطة بغابة قديمة وشذا البرية يداعب خشمينا لكن من الغريب أن منظر

(1) مذهب فلسفي يوناني قديم يقول إن على الإنسان أن يكافح للتحرر من الشهوة ولا يتأثر بالمسرة أو الحزن لما يخضع لما يمكن الضرورة المحتمة — المترجم.

بحيرة وغابة وبيت منعزل بحديقة معتنى بها سرعان ما بدا مزعجًا إن مشاهدة منظر طبيعي من هذا المستوى السطحي لا تلتقط إلا التشابه النمطي الممل إذ لا يسمح لك بغمس نفسك في روح المكان الذي لن يتنسى لك إلا بالتوقف هناك بضعة أيام أخيرًا وصلنا فى نهاية إلى بلدة (لاغوباهويل هولى) الشمالية ونمنا على ضفافها راضيين ممتلئين بعد وليمة شواء ضخمة تناولناها لكن حين عدنا إلى الطريق لاحظنا ثقبًا في العجلة الخلفية للدراجة وعندئذ خضنا معركة مضنية مع الإطار الداخلي كلما رفعنا جانبًا يثقب جانب آخر من الإطار حتى لم يعد عندنا مزيد من الرقع فأجبرنا على قضاء الليلة حيث قدم لنا مشرف نمساوي كان يشترك في سباق الدراجات في شبابه مأوى شاغرًا نمكث فيه وقد تجاذبته الرغبة في مساعدة زملاء دراجة في حاجة إلى المساعدة.

أخبرنا بلغته الأسبانية الركيكة أن «بوما Puma» موجوداً في المنطقة والبوما شريرة لا تخشى مهاجمة الناس خاصة الناس التى لها فروة شقراء كثيفة مثل البرتو زميلى..

وجدت عند محاولة إقفال الباب أنه مثل باب الأسطبل يقفل الجزء السفلي منه فقط وضعت مسدسنا قرب رأسي في حالة عزمت البوما التي شغل شبحها تفكيرنا القيام بزيارة ليلية مفاجئة كان الفجر على وشك البزوغ عندما استيقظت على صوت مخالب تخدش الباب بالقرب من المكان ألبيرتو كان مستلقيًا بصمت يعتريه

الرعب كانت يدي متوترة تمسك بالمسدس المهيأ للإطلاق حدقت بي عينان لامعتان من الأشجار المظللة كقطة وثبت العينان إلى الأمام وعلت كتلة الجسد الأسود على الباب.

كانت مجرد تخمينات وقد فشل كابح الذكاء شد دافعي للحفاظ على النفس دوى هزيم الرعد على الجدران وحولها مدة طويلة ولم يتوقف إلا حين راحت شعلة مضيئة في الممر تنادي علينا بيأس لكننا عرفنا حين ذاك في صمتنا الخجول أو أمكننا على الأقل التخمين سبب صرخات المشرف الجهورة ونشيج زوجته الهستيري وهي تلقي بنفسها فوق جسد بوني الميت. كلبها البغيض حاد الطبع. ذهب ألبيرتو إلى بلدة (أنفوستورا) لإصلاح العجلة وفكرت أن عليَّ قضاء الليلة في العراء لعدم استطاعتي طلب سرير في بيت نعتبر فيه مجرمين من حسن الحظ أن دراجتنا كانت قرب كوخ عامل آخر سمح لي بالنوم في المطبخ مع أحد أصدقائه استيقظت في منتصف الليل على صوت المطر وكنت على وشك الخروج لتغطية الدراجة بقماش مشمع لكن قبل فعل ذلك قررت أخذ بعض النفثات من منشاق الربو أثر تأثير جلد الخروف الذي استعملته كوسادة، استيقظ رفيقي النائم على صوت الاستنشاق قام بحركة مفاجئة ثم صمت في الحال، أحسست أن جسده قد تصلب تحت أغطيته قابضًا على سكين وحابسًا تنفسه، قررت وتجربة الأمس ما زالت حية في ذهني أن أبقى حيث كنت كي لا أطعن بالسكين إن كانت التوهمات

معدية في هذه المنطقة. وفى الصباح واصلنا رحلتنا.

ووصلنا (سان كارلوس دي باريلوتش) في مساء اليوم التالي وقضينا الليلة في مركز شرطة في انتظار السماح لنا بالانطلاق صوب الحدود التشيلية.



(4)
الجزء الثاني من الرحلة

والآن أشعر أن جذوري العظيمة مقتلعة

يوصلنا تشى جيفارا سرد رحلته إلى أمريكا اللاتينية، بالدرجة النارية ويقول:

احتمينا في مطبخ مركز الشرطة من عاصفة أطلقت العنان لجام غضبها في الخارج كان الجو مطمراً وعاصف فى آن واحد ومن المستحيل قيل إستكمال الرحلة فى مثل هذه الأجواء والأراضى الموحلة جدا بلا سبب وجيه اعتراني تعب شديد وأصغيت نصف نائم إلى حديث سجين جوال مثير يلفق ألف قصة غريبة ويشعره جهل المستمعين إليه بالأمان كنت قادرًا على فهم معنى كلماته الدافئة اللعوبة بينما الوجوه المحيطة به تحملق فيه كي تسمع بشكل أفضل إلى قصصه وهي تكشف بأسرارها كان يحدث كل هذا فى مركز الشرطة الحدودى.

كما لو من خلل ظهر فى ضباب بعيد كان بإمكاني رؤية طبيب أمريكي قابلناه هناك في (باريلوتش) يومئ برأسه قائلا: أعتقد أنكما ستصلان المكان الذي تقصدانه فأنتما تملكان الشجاعة لكني أظن

أنكما ستمكثان فترة في المكسيك إنها بلاد رائعة، ولم أعلن أنا أو ألبرتو على حديث ذلك الطبيب.

شعرت فجأة بأني أحلق مع البحار إلى بلاد قصية بعيدًا عن مجريات دراما حياتي انتابني قلق عميق شعرت بأني غير قادر على الإحساس بأي شيء بدأت أشعر بالخشية على نفسي فرحت أخط رسالة مسيلة للدموع لكني عجزت عن الكتابة ولم اكتب شيئا ومن غير الممكن المحاولة في شبه النور المحيط بنا دارت أشباح ملتفة حولىكدوامة غير «أنها» لم تظهر كنت عند اعتقادي أني أحبها في تلك اللحظة عندما أدركت أني لا أحس بشيء إنها خواطر راودتنى وأنا فى نقطة الحدود التى تفصل بين دولتين ولم يكن هناك مقر من البقاء ليلا هناك.

أنارت شمس الصباح معتدلة اليوم الجديد يوم مغادرتنا وداعنا أرض الأرجنتين لم يكن حمل الدراجة إلى (موديستا فيكتوريا) مهمة يسيرة لكننا نجحنا أخيرًا في تحقيق ذلك بقليل من الصبر وشكل إنزالها صعوبة مماثلة ها نحن في تلك البقعة الصغيرة قرب البحيرة المدعوة باسم (طنان بويرتوبليست) بضعة كيلو مترات على الطريق ثلاثة أو أربعة على الأكثر، أعادتنا إلى الماء بحيرة خضراء قذرة هذه المرة اسمها لاغونافرياس). ورحلة قصيرة قبل الوصول أخيرًا إلى

نقطة الجمارك ثم مركز دائرة الهجرة التشيلية الكائن في الجزء الآخر من سلسلة الجبال الأدنى كثيرًا عند خط العرض هذا، هناك عبرنا بحيرة أخرى تصب فيها مياة (نهر ريو رونادور) الذي ينبع من البركان العظيم الذي يحمل الاسم نفسه تمتاز هذه البحيرة (إسمرالدا) بنقيض بحيرات الأرجنتين بماء معتدل الحرارة يجعل السباحة فيه متعة مغرية جدّاً هناك في أعالي سلسلة الجبال في مكان يدعى (كازايانغو) موقع يشرف على منظر خلاب فوق أراضى تشيلي نقطة تقاطع إلى حد ما على الأقل بالنسبة لي في تلك اللحظة كنت أتطلع إلى المستقبل عبر الشريط الضيق لتشيلي وما وراءه مما يعيد أبيات قصيدة أوتيرو سيلفا إلى ذهني. ومن تشيلى انطلقنا مستكملين رحلتنا إلى بيرو.

في أرض تخضع لسيادة باشاماما

يواصل تشى جيفارا سرد رحلته على الدراجة النارية عبر أمريكا اللاتينية ويصف لحظة وصوله إلى بيرو..

أظهرت أغطية شرطة بيرو قيمتها في الثالثة صباحًا إذ غمرتنا بدفء مجدد للعافية ثم أيقظنا شرطي الحراسة بهزة كانت هناك شاحنة متجهة إلى (أيلافي) ووجدنا أنفسنا فى الوضع المحزن لمغادرتهم كانت الليلة رائعة وإن كانت باردة روعة ومنحنا امتيازًا ببعض الألواح الخشبية لنجلس عليها ولتفصلنا عن الرائحة الكريهة للقطيع البشري المحمل بالبراغيث ورائحة نافذة لكنها دافئة مثل أنشوطة خيل فعلية.

أدركنا حين بدأت الشاحنة في هبوطها فقط عظم الأمتياز حيث لم يقترب شيء من الرائحة منا ربما كان من الصعب على برغوث رياضي أن يثب إلينا طالبًا اللجوء، من جهة أخرى جلدت الريح جسدينا بحرية وفي دقائق كنا متجمدين استمرت الشاحنة في الصعود وازداد البرد كثافة مع مرور كل دقيقة. لقد دخلنا بيرو عبر شاحنة سفر بضائع مكشوفة.

كي نوقف انهيارنا كان علينا ترك حركة أيدينا حرة خارج الأغطية الواقية إلى حد ما كان من الصعب تغيير موضع النوم ولو قليلاً دون أن نطير إلى مؤخرة الشاحنة وعند اقتراب الفجر أدت مشكلة في (الكاربوتير) التي تسبب الازعاج لكل المحركات في هذا الارتفاع وتوقفت الشاحنة كنا نقترب من أعلى نقطة في الطريق 5000 مترًا تقريبًا في ركن ما من السماء كانت الشمس تشرق وحل نور مبهم مكان العتمة المطبقة المصاحبة لنا في تلك اللحظة كان تأثير الشمس النفسي غريبًا فلم تكن قد أشرقت في الأفق وإن شعرنا بالراحة لمجرد تخيل الحرارة التي ستجلبها.

على جانب الطريق كان مطر ضخم شبه دائري وكانت هناك فروع أشجار إلى جانب الخضرة الوحيدة في المنطقة فاستخدمناها لإشعال نار بائسة لكنها سخنت ماء من قليل من الثلج ولابد أن هيئتنا المدهشة ونحن نشرب المتة الغريبة قد بدا مثيرًا لاهتمام الهنود كما أن ملابسهم التقليدية بالنسبة لنا كانت مثيرة هى الأخرى إذ لم تمض لحظة دون أن يقترب أحدهم ليسأل بإسبانية ركيكة لماذا نصب ماء على ذلك الشيء غير المطبوخ جيدًا. كان معنا بعض الهنود فى الشاحنة.

رفضت الشاحنة مطلقًا حملنا إلى نقطة أبعد لذا كان علينا أن

نتابع السير قرابة ثلاثة كيلو مترات في الثلج. لم يبد أن أقدامهم الصلبة العارية تزعجهم في حين شعرنا أن أصابع أقدامنا متجمدة من البرد القارس بالرغم من أحذيتنا الثقيلة والجوارب الصوفية ساروا بإيقاع مضجر ثابت مثل اللاما في آن واحد.

نجت الشاحنة من الحادثة المروعة برغبة متجددة وقمنا بتنظيف الممر في أعلى القمة حيث كان هناك هرم غريب مشيد من حجارة غير متساوية الحجم ومتوج بصليب حين عبرت الشاحنة بصق الجميع تقريبًا وقام واحد أو أثنان بعمل إشارة الصليب سألنا باهتمام عن معنى هذه الطقوس الغريبة فلم نقابل إلا بالصمت المطبق التام.

راحت الشمس تبعث الدفء والحرارة مقبولة أكثر أثناء هبوطنا متتبعين دومًا مجرى نهر رأيناه ينبع من قمة الجبل ويزداد إلى حجم لا بأس به، طفقت ذرى الجبال المكللة بالثلوج تنظر إلينا دون تغيير أثناء مرور الشاحنة في حين هربت الكونة[1] غير المتحضرة من الضوضاء.

في أحد المواقف العديدة التي توقفنا فيها على الطريق اقترب منا بخجل هندي مع ابنه الذي يتكلم الإسبانية بشكل جيد وراح

(1) حيوان جنوب أمريكي شبيه بالجمل.

يسألنا عن «أرض بيرون» الرائعة أثارت عظمة المشهد الذي تسافر فيه مخيلتنا كان من السهل علينا وصف الأحداث غير العادية المثيرة للهفة القلب ومآثر القيثار ومشبعًا عقول سامعينا بقصص الحياة الجميلة في بلادنا.

طلب الرجل منا عبر ابنه نسخة من الدستور الأرجنتيني مع إعلانه حقوق كبار السن فوعدناه بحماس أن نرسل ذلك له وحين داومنا للرحلة أخرج الهندي العجوز عرنوس ذرة فاتحًا للشهية من تحت ملابسه وقد التهمناه بسرعة وقسمنا النواة بيننا بديمقراطية.

في منتصف بعد الظهيرة والسماء الثقيلة الرمادية تحط علينا مررنا بمكان مثير للاهتمام حيث حثت عوامل التعرية الصخور الضخمة على قارعة الطريق لترسم قلاعًا إقطاعية تحتوي شرفاتها على فتحات دفاعية وتماثيل فاتنة لحيوانات وبشر تطالعنا بارتباك وجيش من الوحوش الخرافية التي بدا أنها تقف في الحراسة مهتمة بالهدوء من أجل الشخصيات الأسطورية التي من المؤكد أنها تقطن في المكان. أصبح الرذاذ القليل الذي داعب وجوهنا بعض الوقت أقوى وتحول إلى مطر غزير، نادى السائق على «الطبيبين الأرجنينيين» ليدعونا إلى مقصورته أكثر راحة ممكنة في تلك البقاع سرعان ما أصبحنا أصدقاء مع مدرس من (بونو) أقالته الحكومة من منصبه

كونه عضوًا في حزب «الاتحاد الشعبي» الثوري الأمريكي كان عند الرجل الذي من الواضح أن دم أهل البلاد يسري في عروقه علاوة على كونه عضوًا في الحزب ما لم يعن لنا شيئًا وحتى علينا عديد من القصص الرائعة حول عادات الهنود وثقافتهم فجلب السرور إلينا بآلاف الحكايات وذكريات حياته كمدرس. مستجيبًا لدمائه الهندية مع النقاشات التي لا تنتهي بين الخبراء في المنطقة ضد الكوياس الذي يصنفهم «لادينوسف» [1] جبناء.

كما بين لنا الطقوس الغريبة التي شاهدناها وقام بها مرافقونا في الرحلة وعند وصول أعلى نقطة في الجبل يهدي الهندي كل حزنه إلى (باشاماما) الأرض الأم فيم شكل حجر رمزي أشكال تتراكم لتشكل الهرم الذي رأيناه. حاول الإسبان حين قدموا لغزو المنطقة تحطيم مثل هذه المعتقدات والقضاء على هذه الطقوس دون نجاح. لذا قرر الكهنة الإسبان قبول الأمر الواقع ووضعوا صليبًا واحدًا على قمة كومة الحجارة حدث كل ذلك قبل أربعة قرون (كما روى غارسيلا سوديلانيجا)[2] وبالحكم من عادات الهنود الذين يقومون بإشارة

(1) Ladimos أمريكي لاتيني يتكلم الإسبانية ما يستخدم في وصف الهنود المتكلمين بالعادات الأسبانية.

(2) كان غلاسيلاسو الإنكا ابن الأميرة الإنكا الغازية واحدًا من مؤرخي أحداث الغزو.

الصليب لم ينجز المتدينون تقدمًا كبيرًا فى ارتقاء المواصلات الحديثة الآن يبصقون أوراق الكوكة الممضوغة وهذا يجعل همومهم لتبقى مع (باشاماما) إله الأرض عندهم.

ارتفع صوت المدرس الملهم ليصل نبرة مدوية كلما تكلم عن الهنود الذين كانوا مرة من عرق (أيمار المتمرد) الذي أبقى جيوش (الإنكامكبلة) تحت المراقبة وينمغض إلى عمق خاو عندما يتكلم عن حالة الهنود اليوم حيث يعاملون بوحشية من قبل الحضارة الحديثة وزملائهم المهجنين والأعداء الألداء الذين ضاعفوا الانتقام من (الأيمارا) من أجل موقعهم الكائن بين عالمين، تكلم عن الحاجة لبناء المدارس التي ستوجه الأفراد في عالمهم الخاص وتمكنهم من لعب دور نافع فيه، والحاجة لتغيير أساس نظام التعليم الحالي الذي يقدم في حالات نادرة التعليم للهنود (وفق معايير الرجل الأبيض فقط) ويملؤهم فقط بالعار والازدراء ووصفهم بعدم القدرة على مساعدة رفاقهم الهنود ويعيشون في ظرف قاسي يحتم عليهم القتال داخل مجتمع أبيض يرفض قبولهم وتحدث عن مصير هؤلاء التعساء والركود في موقع بيروقراطي صغير والموت على أمل أن يحقق أحد أبنائهم الحرية ويقدم شكرًا للقوى الخارقة ويتحرروا من كل نقطة دم استعمارية في عروقهم بطريقة ما، الهدف الذي يتطلعون إليه آخر

أيامهم يرى المرء في قبضته المتشنجة المطبقة اعتراف رجل يعذبه سوء طالعه وكذلك الرغبة التي تعزى إلى أنموذجة الافتراض بالتطلع للحرية ألم يكن في الواقع ان الاستعباد نتاجًا نمطيّاً «لتعليم» يدمر الشخص الذي يتلقاه وحقّاً ممنوحًا للقوة السحرية لتلك «الفطرة» الوحيدة حتى ولو جاءت من امرأة مهجنة فقيرة يُبعث بها إلى سيد سياسي محلي أو نتيجة اغتصاب خادمة هندية من قبل سيدها الإسباني السكير؟

غير أن رحلتنا كانت قد شارفت على النهاية تقريبًا فصمت المدرس وانعطفت الطريق وعبرنا جسرًا فوق النهر نفسه الذي رأيناه باكرًا في ذلك الصباح كجدول صغير كانت الآن على الضفة الأخرى.

وما أثر فينا حقا هو مأساة هؤلاء الهنود الذين كانوا يعانون من استعباد الرجل الأبيض للهنود الذين لازالوا على قيد الحياة حتى الآن ويعيشون حياة بدائية تماما مثل حياة الكهوف التى سمعنا عنها فى قصص الروايات الخيالية.

بحيرة الشمس

يواصل تشى جيفارا وصف رحلته على الدراجة النارية قائلاً:

تكشف البحيرة المقدسة جزءًا صغيرًا فقط من عظمتها شيد اللسان الضيق من الأرض المحيطة بميناء (بونو) ليخفيها عن النظر فتمايل قوارب القصب الطويلة هنا وهناك في المياه الساكنة وتصطف سفن الصيد على مدخل البحيرة كانت الريح قارسة البرودة وبدا أن السماء الرصاصية الملساء تعيد تكرار حالتنا الذهبية وبالرغم من قدومنا مباشرة من (بونو) دون التوقف في (إلياففي) وضماننا مكانًا مؤقتًا ننزل فيه ووجبة جيدة في الثكنات المحلية إلا أن حظنا قد ولى كما بدا بأدب جم قادنا الضابط المسؤول إلى الباب شارحًا لنا أن هذه نقطة حدودية وعليه أن يمنع الأجانب بتاتًا من البقاء هناك أثناء الليل. لم نود المغادرة دون رؤية البحيرة لذا ذهبنا إلى الرصيف الممتد في البحر لنرى إن وجد أحد ليأخذنا إلى هناك في قارب حيث بإمكاننا تقدير البحيرة بكل عظمتها واستخدمنا مترجمًا ليعجل العملية لأن أحدًا من الصيادين كلهم من (أيمارا) لم يعرف

الإسبانية نجحنا في جعلهم يأخذوننا مع الدليل المتطفل الملتصق بنا مقابل خمسة سوليس متواضعة فكرنا في السباحة في البحيرة لكن بعد جس درجة الحرارة برؤوس أصابعنا الصغيرة فضلنا عدم فعل ذلك (قام ألبيرتو بعرض كبير خلع فيه ملابسه وحذاءه ثم عاد ليرتديها ثانية بطبيعة الحال). وذلك بعد أن غسلها فى ماء البحيرة.

كرؤوس دبابيس صغيرة مبعثرة على صفيحة ماء البحيرة الشاسعة الرمادية ظهرت مجموعة من الجزر في الأفق وصف مترجمنا حياة الصيادين هناك بعضهم بالكاد رأى رجلاً أبيض في حياته وكيف يعيشون على النمط القديم ويأكلون الطعام نفسه ويصطادون السمك بأساليب تعود إلى 500 سنة ومضت ويحافظون على بقاء طريقة لباسهم وطقوسهم وعاداتهم ويعيشون حياة بدائيه جداً..

حين عدنا إلى الميناء سرنا إلى أحد القوارب المبعثرة بين (بونو) وميناء (بوليفي) في محاولة للحصول على بعض الأطعمة والشراب القليلة الآن غير أنهم لا يشربون (المثه) في شمال بوليفيا في الواقع بالكاد سمعوا بها فلم نستطع الحصول حتى على نصف كيلو لحم وشعير تفحصنا القارب المصمم في إنجلترا والمصنع هنا كانت فخامته تتناقص ومع السائد في المنطقة كلها.

وجدت مشكلة إقامتنا حلاً في مركز الحرس المدني حيث سمح

لنا رقيب في غاية الود بالبقاء في المستشفى كلانا في سرير واحد لكننا كنا على الأقل مرتاحين ودافئين بعد زيارة جيدة نوعًا ما للكاتدرائية، في اليوم التالي وجدنا شاحنة متوجهة إلى (كوركو) كان الطبيب في (بونو) قد أعطانا رسالة توصية إلى الدكتور هيرموسا مختص سابقًا بالجذام ويعيش الآن في كوزكو.

❀❀❀

صوب سرة العالم

لم تكن المرحلة الأولى من الرحلة طويلة لأن سائق الشاحنة تركنا في فولياكا حيث توجب علينا العثور على شاحنة أخرى تقلنا إلى الشمال ذهبنا طبعًا وفق توصية حارس بونتو المدني إلى مركز الشرطة حيث وجدنا رقيبًا ثملاً ارتاح إلينا فدعانا إلى شراب وطلب جعة احتسيت في جرعة واحدة باستثناء زجاجتي التي بقيت مليئة على الطاولة.

«ما الخطب يا صديقي الأرجنتيني ألا تحب الشراب؟».

«كلا ليس الأمر كذلك في بلادنا لا نشرب هكذا لا تغضب كل ما في الأمر أننا نشرب عندما نتناول الطعام فقط». قال مشددًا على لفظة الاسم المستعار لمواطن بلادنا وموحيًا بمعناها «لماذا لم تقل ذلك؟» بتصفيق من يديه طلب شرائح جبن رائعة أشعرتني بالرضا ثم غمر نفسه في وصف لفظي متأنق لأعماله البطولية وتباهى بالخوف والاحترام الذي يكنه له أهل المنطقة بسبب براعته الفائقة في الرماية. لإثبات ذلك سحب مسدسه وقال لألبيرتو: «انظر يا تشي تقف على

بُعد 20 مترًا ولفافة في فمك وإذا لم أقدر على إشعالها من الرصاصة الأولى سأعطيك 50 سوليس» لم يكن ألبيرتو يحب النقود إلى هذا الحد فلم يتحرك من مقعده ليس على الأقل مقابل 50 سوليس ثم قال. «يا تشي سأجعلها 100 سوليس» لم يحرك ألبيرتو ساكنة.

عندما وضعت 200 سوليس على الطاولة بدأت عيني ألبيرتو تومضان لكن غريزته في الحفاظ على النفس كانت أقوى فلم يتحرك لذا أخذ الرقيب قبعته ونظر في المرآة ثم ألقى بها خلفه وأطلق النار كانت القبعة في حالة جيدة لكن الجدار لم يكن كذلك انفجرت صاحبة البار سخطًا وانطلقت كعاصفة إلى مركز الشرطة لتقديم شكوى.

في غضون دقائق جاء ضابط ليكتشف الفضيحة ويجذب الرقيب إلى ركن ليوبخه حين عادا لينضما إلينا. استرسل في تقريع مطول ضد رفيق رحلتي وهو يشير له بإيماءة من وجهه تفهم رفيقي ما كان الرقيب يرمي إليه «اسمع أيها الأرجنتيني هل معك مزيد من المفرقعات النارية كالتي أطلقتها؟» أدرك ألبيرتو الأمر بسرعة وقال ووجهه صورة للبراءة أنها نفدت، حذره الضابط من إطلاق المفرقعات في الأماكن العامة. ثم أخبر صاحبة المحل أن الحادثة قد طويت وأنه لا يرى أثرًا لإطلاق رصاص على الحائط، طلبت المرأة من الضابط الانتقال بضع سنتميترات من حيث يقف ثابتًا أمام الجدار

غير أن عملية حسابية ذهنية سريعة لنافع ومضار ذلك كانت كافية لأن تبقى فمها مغلقًا عوض عن ذلك قامت بتوبيخ ألبيرتو بلسان حاد آخر قائلة «يظن الأرجنتيون أنهم يملكون كل شيء» علاوة على مزيد من الإهانات التي ضاعت في الطريق أثناء فرارنا كان أحدنا يفكر بحزن في الشراب والآخر في خسارة شطائر الجبن.

وجدنا شاحنة أخرى تنقلنا وسافرنا مع شابين من ليما حاولا طوال الوقت أن يظهرا لنا كم هما أفضل من الهنود الصامتين الذين تحملوا السخرية ولم يظهروا ما يتم من إزعاج، في البدء نظرنا إلى الجهة الأخرى دون أن نعيرهما اهتمامًا لكن بعد ساعات من الرحلة المملة عبر سهلٍ لا متناه أجبرنا على تبادل بضع كلمات مع الشابين الوحيدين في الشاحنة الذين يمكننا تبادل الحديث معهما حيث إن الهنود الحذرين بالكاد يحبذون أسئلتنا ويردون بكلمة واحدة فقط في الواقع كان هذان الشابان من ليما عاديين بما فيه الكفاية وكانا بحاجة لإظهار الاختلافات بينهما وبين الهنود بشكل جلي ونحن نمضغ بنهم أوراق الكوكا التي حصل عليها صديقانا الجديدان.

وصلنا ليلة البارحة قرية تدعى (أيانيري) حيث نزلنا في فندق دفع أجرته الحارس المدني، «عذرا» أجاب على احتجاجنا الواهن على حركته المردعة «طبيبان أرجنتيان ينامان في مكان غير مريح

لأنهما لا يملكان نقودًا»؟ هذا غير ممكن، لكن بالرغم من الفراش الدافئ بالكاد أمكننا إقفال عيوننا لقد انتقم الكوكا الذي تناولناه إثر تبجحنا بسيل من الغثيان والمغض ووجع الرأس طوال الليل.

غادرنا في الصباح التالي باكرًا في الشاحنة نفسها إلى (سيكواني) حيث وصلنا في منتصف بعد الظهيرة وقد اعترانا برد شديد ومطر وجوع كالعادة قضينا الليلة في مركز الحرس المدني وكالعادة اعتنوا بنا كان يجري نهر ضيق بائس يدعى فيلكانوتا عبر سيكواني وكان علينا أن نتابع إلى حين جريان مياهه وهي محيط من الطين.

تأملنا في سوق سيكواني بكل أطياف الألـوان التي تفيض بها أكشاك البيع والمتشابكة مع صيحات الباعة الرتيبة وغمغمة الحشد أحادية النغمة عندما لاحظنا تجمعًا من البشر قرب ركن فذهبنا لاستطلاع الأمر. تقدم موكب محاط بجمع غفير على رأسه دستة من الرهبان يرتدون أردية ملونة تتبعهم قافلة من الوجهاء متجهمي الوجوه مدثرين بثياب سوداء ويحملون كفنًا كانوا يختتمون جنازة رسمية يتبعهم حشد غفير دون توجيه أو نظام توقف الموكب وظهر رجل يرتدي الثياب السوداء على شرفة وفي يده ورقة : «إن واجبنا ونحن نـودع هذا الرجل العظيم الفاضل..» إلخ بعد هذه الثرثرة المضجرة تحرك الموكب أبعد قليلاً وظهرت شخصية ترتدي السواد

على شرفة «شخص ما أو آخر قضى لكن ذكرى أعماله الجيدة وأمانته التي لا تشوبها شائبة...) إلخ وهكذا يعبر شخص مسكين عجوز أو آخر إلى مثواه الأخير على هذا المنوال يلاحقه كره زملائه القرويين الذين يفرغون ما بأنفسهم في كل ركن شارع بسيل جارف من الكلمات.

ثم يوم آخر من الترحال كثير الشبه بسابقه وأخيرًا وصلنا بلدة (كوزكو).



السـرة

الكلمة التي أكثر ما تصف كوزكو هي مثيرة للشجن يحط غبار دقيق لا يلحظ من حقيقة أخرى على شوارعها يصعد مثل رسوبيات تثور باضطراب من بحيرة طينية حين تلمس قعرها لكن هناك مدينتان أو ثلاث من كوزكو أو من الأفضل القول أسلوبان أو ثلاثة يمكن أن تستدعى فيها المدينة عندما ألقت (ماما أوكللو) وتدها الذهبي في الأرض وغاص دون جهد عرف أول حضارة أن هذا هو المكان الذي اختاره فيراكوتشا ليكون بيتًا دائمًا لإتباعه المختارين الذين تركوا خلفهم حياة الرحل وقدموا فاتحين إلى أرض ميعادهم راقبوا بأنوف متسعة وبحماس لارتياد الآفاق الجديدة إمبراطوريتهم الهائلة وهي تنمو في طريق دومًا إلى ما وراء الحاجز الضعيف من الجبال المحيطة وشرع الرحالة المتحولون إلى توسيع (تاهومتشيو) محضين كما فعلوا مركز المنطقة التي هى سرة العالم كوزكو» [1]

(1) كانت ماما أوكللو Ocllo أخت لزوج مايكوكاباك أول إمبراطور إنكا وفق الأسطورة ولد الاثنان معًا من بحيرة نيتكا كارنر الوحدة والمساواة بين الرجل والمرأة كان نيرا كوتشا إله الخلق عند الإنكا كانت تاهوتسينو (الأرجاء الأربعة) عالم الإنكا

وهنا نشأت كدفاع ضروري عن الإمبراطورية (ساكساهوماق) المهيبة المهيمنة على المدينة من مرتفعاتها وحامية القصور والمعابد من غضب أعـداء الإمبراطورية أتبعت صـورة كوزكو هـذه بحزن من الحصن المدمر من بناء الغزاة الإسبان من أطلال المعابد المغتصبة من القصور المنهوبة من وجوه العرق المعامل بوحشية هذه كوزكو التي تدعوك لأن تصبح محاربًا وتدافع وعصا غليظة في يدك عن حرية وحياة الإنكا.

عاليًا فوق المدينة يمكن رؤية كوزكو أخرى تحل مكان الحصن المدمر: كوزكو يقاطع انسيابها اللطيف قبة كنيسة باروكية وحين تترامى المدينة تكشف لنا عن شوارعها الضيقة فقط وسكانها بملابسهم التقليدية كل أطياف الألون المحلية كوزكو هذه تدعوك إلـى سياحة مترددة لتمر على الأشياء بشكل عابر وتستريح في الجمال تحت سماء الشتاء الرصاصية.

وهناك مع ذلك كوزكو أخرى مدينة نابضة بالحياة والنشاط تشهد معالمها على الشجاعة الهائلة للمقاتلين الذين غزوا المنطقة باسم إسبانيا كوزكو الموجودة في المتاحف والمكتبات في واجهات

التي تشكل كوزكو مركزها.

الكنائس وفي الأماكن الصافية وملامح الزعماء الحادة تشعرك حتى اليوم بالفخر هذه كوزكو التي تلح عليك لشحذ جسامك وامتطاء ظهر جواد قوي واسع لشق درب في جسد هندي عار لا يملك الدفاع عن نفسه المنهار على جداره الإنساني والمتواري تحت الحيوان الراكض وحوافره الأربعة.

يمكن لكل واحدة من هذه الكوزكو أن تقدر بشكل منفرد ولكل حصصنا جزءًا من إقامتنا وأقمنا فى كوزكو يوماً كاملاً نتفقد آثارها الخالدة.



يوم القديس جيفارا

يوم السبت الموافق 14 يونيو/ حزيران 1952م أصبح عمري وأنا مجرد صبي 24 سنة في طرف ذلك الربع المتسامي من القرن إنه يوبيل العرس لحياة ذلك الذي مع أخذ كل شيء بعين الاعتبار لم يعاملني بشكل سيئ ذهبت في الصباح الباكر إلى النهر لأحاول حظي مع السمك لكن هذه الرياضة مثل المغامرة يبدأ المرء رابحًا وينتهي خاسرًا، بعد الظهر لعبنا كرة القدم وحافظت على مكاني المعتاد في المرمى مع تحقيق نتائج أفضل من المناسبات السابقة، في المساء بعد المرور ببيت الدكتور برسياني لتناول وجبة شهية فاخرة أقاموا حفلة على شرفنا في حجرة الطعام في المستعمرة مع كثير من شراب بيرو الوطني، كان ألبيرتو خبيرًا في تأثيره على نقطة الأعصاب المركزية والكل ثمل إلى حد ما ونشوان، رفع مدير المستعمرة كأسه لشرب نخب بحرارة على شرفنا وأجبت وقد أسكرني البسكو بشيء محكم:

حسنًا من واجبي أن أجيب على نخب الدكتور برسياني بشيء

أكثر من مجرد إيماءة تقليدية في حالتنا الراهنة المحفوفة بالمخاطر كرحالين نلتمس العون من الكلمات فقط وأود الآن بأن أستخدمها للتعبير عن امتناني وشكر رفيقي في الرحلة لجميع العاملين في المستعمرة الذين دون معرفة مسبقة بنا. قدموا هذا القدر الجميل من مواطنهم للاحتفال بعيد ميلادي كما لو كان احتفاء حميمًا بعيد واحد منكم لكن هناك شيئًا أكثر من ذلك بعد أيام سنغادر أراضي بيرو لذا فإن لهذه الكلمات غاية ثانوية وهي وداعكم وأود أن أؤكد على امتناني لكل شعب هذه البلاد الذين أظهروا لنا كل أريحية دافئة منذ أن وطأت أقدامنا أرض بيرو هكذا كانت كلماتى ردا على هذه الاحتفالية.

كما أود أن أقول شيئًا آخر لا علاقة له بموضوع هذا النخب بالرغم من عدم اهميتنا إننا لا نقدر أن نكون متحدثين باسم أحد فى مثل هذه القضية النبيلة نعتقد وبعد هذه الرحلة أكثر من أي وقت مضى أن تقسيم أمريكا اللاتينية إلى أمم غير مستقرة ووهمية هو خيالي تمامًا نحن نشكل عرقًا ودماً واحدًا يحمل من المكسيك إلى مضايق ماجيلان خواص النوغرافية فذة متشابهة وعليه في محاولة لتخليص نفسي من ثقل الإقليمية ضيقة التفكير أقترح شرب نخب بيرو وفي سبيل أمريكا لاتينية متحدة.

قوبلت كلماتى بتصفيق حاد استمرت الحفلة المكونة من احتساء كحول قدر المستطاع حتى الثالثة صباحًا.

صباح الأحد زرنا قبيلة (الباجوا) وهم هنود القش الأحمر بعد مسيرة 30 دقيقة في درب حول أدغال كثيفة لا تخترق وصلنا مجموعة من الأكواخ حيث تعيش عائلة كان نمط حياتهم مدهشًا.

- يعيشون في الخارج تحت أكواخ خشبية وأكواخ سعف النخيل السحري الصغير ليحميهم في الليل من البعوض الذي يهاجم في أسراب، عن مقربة تخلت النساء عن الملابس التقليدية وارتدين الملابس العادية كانت بطون الأطفال منتفخة هزيلة غير أن علامات نقص الفيتامينات لم تبد على الكبار على نقيض معدلها بين الناس الأكثر تطورًا ممن يعيشون في الأدغال يتكون طعامهم من نبات اليكة والموز وثمار النخيل ممزوجة مع الحيوانات التي يصطادونها بالبنادق وأسنانهم تالفة تمامًا يتكلمون لهجتهم الخاصة وإن كان بعضهم يفهم الأسبانية.

لعبنا بعد الظهر كرة القدم وبالرغم من أدائي كان أفضل استطاعوا تسجيل هدف عليَّ بالتسلل أيقظ البيرتو فى تلك الليلة الألم لمعاناته من ألم حاد في المعدة الذي استقر لاحقًا في تجويف العظم كنت في غاية التعب لأنشغل بالآلام الغريبة لشخص آخر لذا نصحته بالتكيف

مع الألم والالتفاف إلى الجهة الأخرى ننام حتى اليوم التالي.

وجاء يوم الإثنين يوم توزيع الدواء في المجمع كان ألبيرتو الذي أولته الأم العزيزة مارجاريتا عناية فائقة يأخذ البنسلين أربع مرات في اليوم بشكل دقيق للغاية وأخبرني الدكتور بريساني أنه في انتظار وصول طوافة فيها بعض الحيوانات ويمكننا أخذ بعض ألواح الخشب لصنع طوافة صغيرة خاصة بنا، استحوذت الفكرة علينا فشرعنا في التخطيط للذهاب إلى ماناوس والتهب قدمي فلم أشارك في مباراة بعد الظهر، وتجاذبت أطراف الحديث مع الدكتور برسياني حول كل شيء يمكن تخيله فنمت في وقت متأخر.

صباح الثلاثاء وقد شفي ألبيرتو تمامًا ذهبنا إلى المجمع حيث أجرى الدكتور مونتايا عملية في عظم الزند في جهاز جذام عصبي بنتائج يبدو أنها رائعة وأنه لم تترك التقنية كثيرًا وذهبنا لصيد السمك بعد الظهر في بحيرة ضحلة قريبة ولم ننجح في صيد شيء طبعًا لكن في طريق عودتي صممت على السباحة عبر الأمازون استغرقني ذلك قرابة ساعتين مما أصاب الدكتور مونتويا غير الراغب في الانتظار بالبأس كانت هناك حفلة مرح صغيرة تلك الليلة انتهت بمعركة جدية مع السيد لزامابيلزان وهو شخص انطوائي غير ناضج شرع في الصراخ بالشتائم والهذيان حتى لطمه شخص على

عينه وأوسعه ضربًا أيضًا أزعجتنا الحادثة قليلاً لأن الرجل المسكين بعيدًا عن كونه شاذّاً جنسيّاً ومملاً من الطراز الأول كان في غاية اللطف معنا وقدم 10 سوليس لكل منا ما رفع حصيلتنا النهائية إلى 479 لي و 163.5 لألبيرتو.

بزغ فجر يوم الأربعاء ماطرًا لذا لم نذهب إلى المجمع وضاع اليوم عمومًا دون طائل قرأت قليلاً من جارسيا لوركا ثم ذهبنا لرؤية الطوافة المربوطة إلى حاجز الماء صباح يوم الخميس يوم أجازة العاملين في المستشفى وذهبنا مع الدكتور مونتويا إلى الضفة الأخرى لشراء الطعام وأبحرنا في أحد روافد الأمازون واشترينا البابايا اليكة والذرة والسمك وقصب السكر بأسعار زهيدة لاتصدق واصطدنا قليلاً من السمك. اصطاد مونتويا سمكة عادية وأنا سمكة تونا، هبت في طريق العودة ريح قوية هاجت بفعلها مياه النهر، وبلل الربان روجر الفاريز سرواله تقريبًا حين تسربت الأمواج إلى زورقه الخفيف الطويل، طلبت تسيير الدفة، لكنه رفض إعطاءها لي، وذهبنا إلى الضفة الأخرى في انتظاهر هدوء النهر، لم نعد في الساعة الثالثة من بعد الظهر وطهينا السمك لكنه لم يسد رمقنا، أعطى روجر كل منا قميصًا وأنا سروالاً لذا تحسنت حالتي الروحية.

كانت الطوافة معدة إلى حد ما وبحاجة إلى مجاديف فقط

أمام جمع من مرضى المستعمرة قاموا بتقديم حفل غنائي لوداعنا ضم كثيرًا من الأغاني المحلية، شدا بها رجل كفيف تكونت الفرقة الموسيقية من عازف فلوت وعازف قيثار وعازف أكورديون دون أصابع تقريبًا وصادف وجود عازف ساعد في عزف السيكسفون والقيثار وبعض آلات النقر، بعد ذلك جاء وقت إلقاء الخطب حيث تكلم أربعة من المرضى قدر استطاعتهم على نحو أو آخر من نوع ما تجمد واحد منهم ولم يستطع المتابعة حتى صرخ أخيرًا من يأسه «مرحى مرحى مرحى للأطباء» بعد ذلك قام ألبيرتو بشكرهم بحرارة على حُسن استقبالهم قائلاً إن جمال بيرو الطبيعي لا يمكن مقارنته بالجمال العاطفي لهذه اللحظة وأنه تأثر عميقًا ولا يملك سوى القول.. وهنا مد ذراعيه على طريقة إيماءة وتنغيم بيرون «أود أن أقدم شكري لكم جميعًا».

وشدا المرضى وعلى صوت لحن شعبي هامت الشحنة البشرية بعيدًا عن الضفة ومنح الضوء الواهن لقناديلهم الناس هيئة شجية ذهبنا إلى بيت الدكتور برسياني لتناول الشراب وبعد الحديث لفترة ذهبنا إلى الفراش للنوم.

يوم الجمعة كان يوم مغادرتنا لذا ودعنا المرضى في الصباح وبعد التقاط بعض الصور عادوا ومعهم ثمرتان من الأناناس هدية

من الدكتور مونتويا وأخذنا حمامًا وتناولنا الطعام وقرابة الثالثة بعد الظهر بدأنا في وداعهم في الثالثة والنصف انطلقت الطوافة بنا التي أطلق عليها اسم (مامبو – تانغو) في النهر حاملة بحارين نحن وكذلك لبرهة قصيرة كان الدكتور برسياني والنارد وشافيز اللذان قاما ببناء الطوافة فى وداعنا.

أخذونا إلى منتصف النهر وتركونا نناضل لدرء الخطر عن أنفسنا.

ظهور أولى لكونتيكي الصغير

بعوضتان أو ثلاثة وحدها لاتقدر على هزيمة رغبتي في النوم التي هزمتها في غضون دقائق كان انتصارى مع ذلك واهيًا في ضوء صوت ألبيرتو الذي هزني من حالتي الانتقالية اللذيذة أضواء خافتة لبلدة صغيرة التي لابد أنها (ليتيسيا) حكمًا من منظرها يمكن رؤيتها على الضفة اليسرى من النهر وكانت مهمة شاقة من تحريك الطوافة صوب الأضواء وفي هذا واجهتنا كارثة حين رفضت الطوافة العجيبة الذهاب إلى أي مكان قرب الضفة صممت العنيدة على شق مجراها الخالص وسط النهر جدفنا بكامل قوتنا وعندما بدا لنا بالتأكيد أننا نسلك دربنا درنا بنصف دورة وانطلقنا عائدين إلى منتصف النهر وشاهدت بيأس تنام الأضواء تهيم في البعيد.

قررنا وقد أضنانا التعب أن بإمكاننا ربح المعركة ضد البعوض على الأقل والنوم بسلام حتى الفجر ثم اتخاذ قرار بما علينا عمله لم تكن الاحتمالات التي أمامنا واعدة إذا داومنا على الانسياب في النهر علينا الذهاب إلى مسافة بعيدة وفق معلومات ثقة إلى حد

ما عشرة أيام من الإبحار لم تكن عندنا أي ومسائل لصيد السمك بسبب حادث جرى قبل يوم ولا كمية كبيرة من المؤونة الضرورية ولم نكن متأكدين من إمكانية رسونا على الضفة وزيد إلى ذلك أننا فى الحقيقة إذا عبرنا نكون قد دخلنا البرازيل دون الإجراءات الورقية ولم نكن نتكلم لغة البلاد غير أن هذه الهموم لم تقلقنا مدة طويلة لأننا نمنا في غفوة عميقة بسرعة أيقظتني الشمس الساطعة وزحفت من تحت شبكة البعوض لمعرفة موقعنا في أسوأ الأحوال ووضعت كونتيكي الصغيرة نفسها على الضفة اليمنى من النهر وانتظرنا بهدوء اختفاء حاجز أمواج صغير لطيف يخفي منزلاً قريبًا، قررت أرجاء كشف الأشياء حتى وقت لاحق لأن البعوض ما زال في مدى القرص ويستمتع بوليمته، كان ألبيرتو يغط في النوم لذا فكرت بالالتحاق به وعمل الشيء نفسه غلبني تعب رهيب وإنهاك غير مريح شعرت بعدم قدرتي على اتخاذ أي قرار سوى التعلق بفكرة أنه مهما سارت الأمور ليس هناك من سبب يدعو لافتراض أننا لا نستطيع التعامل معها.

رسالة إلى أمي العزيزة

بعث أرنستو تشى جيفارا برسالة لأمه بمناسبة عيد ميلادها قال فيها أمي العزيزة

بوغوتا كولومبيا

٦ يونيو / حزيران ١٩٥٢م

أمي العزيزة

ها أنا أخذني ترحالي إلى أبعد كيلو مترات من فنزويلا اسمحي لي أن أتمنى لك عيد ميلاد سعيد كما أتمنى أن تكوني قد قضيته بحب مضحك مع العائلة أنا وصديقى بخير وسأقدم لك سردًا موجزًا عن مغامراتي منذ أن تركنا إبكيتوس سرنا إلى حد ما وفق الخطة وسافرنا ليلتين مع حاشية البعوض الموالي لنا ووصلنا إلى مستعمرة سان بابلو في الفجر حيث حصلنا على مكان منزل فيه أخينا المدير الطبي وهو رجل رائع وانسجمنا و في الحال عمومًا مع كل مَنْ في المستعمرة باستثناء الراهبات اللاتي كن يسألن لماذا لا نذهب أبدًا

إلى القداس، في الكنيسة تدير الراهبات هذا المكان، ومَنْ لا يحضر القداس تقل حصته في الطعام (لم يقدم الطعام لنا لكن الأطفال ساعدونا ووجدوا لنا طعامًا كل يوم) ما عدا هذه الحرب الباردة الصغيرة كانت الحياة سارة بشكل لا يصدق يوم 14 يونيو أقاموا لي حفلة شربت فيها بسكوو كثيرًا وهو نوع من الشراب لا يسكر أبدا وشرب مدير المستعمرة نخبًا على شرفنا وأجبت ملهمًا بالشراب بخطبة تدعو جوهريًا لوحدة أمريكا اللاتينية قوبلت بتصفيق حاد من الجمهور الفذ مكثنا هناك أطول مما خططنا لكن أخيرًا غادرنا إلى كولومبيا في الليلة الأخيرة وجاءت مجموعة من المرضى من المستعمرة في زورق طويل ضخم وغنوا لنا أغاني وداع على حاجز الأمواج وقدموا خطبًا مؤثرة جدّاً.

ألقى ألبيرتو الذي يعتقد أنه خليفة بيرون الطبيعي خطبة مؤثرة ديماغوجية أثارت نوبة ضحك وبين متمنين الخير لنا كانت تلك واحدة من أكثر التجارب المثيرة للاهتمام في رحلتنا عازف أكورديون بلا أصابع في يده اليمنى ويضع مكانها عيدانًا قصيرة مربوطة وكنت مغني كضيف مع هؤلاء المرضى وكل الآخرون تقريبًا كانوا مشوهين بشكل مرعب لأن الشكل العصبي للمرضى كان شائعًا في المنطقة ومع ضوء القناديل والفوانيس المنعكس على النهر كان كمنظر مأخوذ

من فيلم رعب المكان جميل محاط بالأدغال من كل الجوانب وقبائل محلية بالكاد تبعد ميلاً من هناك (زرناهم بالطبع) وكثير من السمك واللحوم وثروة كامنة لا تحلى كل هذا جعلنا نحلم بقطع المسافة من ماتوعزوسو عبر النهر من براجواي إلى الأمازون نمارس الطب أثناء الرحيل فهلم جرا.. يشبه الحلم حصولك على بيت خاص بل.. ربما يومًا.. شعرنا كأننا مكتشفون حقيقيون وأبحرنا في النهر على متن طوافة نافرة عملت خصيصًا لنا ومر اليوم الأول بسلاسة لكن تلك الليلة لم يكن ينبغى أن نبقى يقظين للمراقبة كما ينبغي أن نفعل كان هناك نومًا عميقًا محميّاً بواسطة شبكة بعوض أعطيت لنا واستيقظنا في الصباح التالي لنجد أننا جنحنا إلى ضفة النهر.

التهمنا الطعام كسمك القرش وذاك اليوم قررنا التناوب في المراقبة كل ساعة لتجنب أن مشاكل أخرى حيث إن التيار حملنا في السحر إلى الضفة وأجبرت إلى حد ما بعض الأغصان نصف المغمورة بالماء الطوافة على الانقلاب وأثناء مراقبتي سقطت إحدى الزجاجات اللاتي أخذناهن للغذاء في النهر وجرفها النهر بعيدًا حتى الرجل الذي قطع عرض النهر كله في سان بابلو لم يملك من الشجاعة ما يكفي للغطس في النهر بعد ذلك جزئيّاً لمشاهدتنا، التماسيح تصعد للسطح بين حين وآخر من جهة أخرى ولأنني لم

أتغلب قط فعلاً على خشيتي من الماء في الليل لو كنت هناك لسحبت الزجاجة وأنقذتها وكذلك قد تفعل آنا ماريا حيث أنك لا تعانين من عقد ليلية سخيفة مثلي.

لقد اصطادت إحدى صناراتنا أضخم سمكة اصطدناها ولقد عانينا كثيرًا من سحبها إلى الطوافة داومنا على المراقبة حتى الصباح حين رست بنا الطوافة على الضفة ثم انسللنا تحت شبكة البعوض حيث كان هناك بعوض ضار بعد نوم جيد واكتشف ألبيرتو الذي يفضل السمك على الدجاج أن صنارتين قد ضاعتا في الليل مما وضعه في حالة نفسية سيئة ولما كان هناك بيت في الجوار قررنا معرفة كم تبعد ليتسيا من هناك عندما أخبرنا صاحب البيت بلغة برتغالية رسمية أن ليتسيا تبعد مسافة سبع ساعات من الإبحار في النهر وأننا الآن في البرازيل نشب نقاش حاد بيني وبين ألبرتو كيف نمنا ولم نراقب ما جرى.

لكن هذا لم يفض بنا إلى نتيجة أعطينا السمكة لصاحب البيت وجبة أناناس تزن قرابة أربعة كيلو غرامات قدمها لنا المصابون بالجذام وقضينا الليلة في بيته قبل أن يأخذنا في النهر في طريق العودة التي كانت سريعة لكنها صعبة إذ توجب علينا التجديف بقوة سبع ساعات على الأقل في زورقه لم نكن معتادين عليه. وجدنا مكانًا

وطعامًا.. وذلك في مركز الشرطة في ليتسيا غير أننا لم نستطع الحصول على خصم أكثر من 50% ثمن بطاقات السفر مما فرض علينا دفع 130 بيسوس كولومبي و15 أخرى أجرة الحقائب الزائدة ما مجموعه 1500 بيسوس أرجتتيني لكن ما أنقذ اليوم هو الطلب منا تدريب فريق كرة قدم ونحن في انتظار الطائرة التي تأتي كل أسبوعين مرة في البدء أردنا أن ندربهم ليصلوا إلى نقطة لا تجعلهم يبدون أغبياء لكنهم كانوا من السوء لدرجة أننا قررنا اللعب معهم أيضًا كانت النتيجة الدهشة أن ما يعتبر أضعف فريق دخل البطولة التي تجري في يوم واحد وقد أعيد تنظيمه تمامًا ووصل إلى النهائي قبل أن يخسر في ضربات الجزاء الترجيحية فقط بدأ ألبيرتو مثل بيدرتيرا[1] إلى حد ما في تمريراته لذا أطلق عليه الاسم المستعار بيدرتيرا ولقد نجحت في صد ضربة جزاء ما سيدخل في تاريخ ليتسيا كان للاحتفال أن يكون عظيمًا لو لم يعزفوا النشيد الوطني الكولومبي في النهاية ولم انحنى لمسح بعض الدم المنساب من ركبتي خلال ذلك مما أدى إلى رد فعل عنيف من الكولونيل الذي صرح لي كنت على وشك الصراخ مجيبًا عندما تذكرت رحلتنا.. إلخ فعضضت لساني. بعد الطيران العظيم في طائرة متأرجحة وصلنا

(1) لاعب كرة أرجنتيني.

(بوغوتا) وتجاذب ألبيرتو أطراف الحديث مع المسافرين في الطريق ساردًا لهم رحة مرعبة عبرنا فيها المحيط الأطلسي مرة لحضور مؤتمر دولي حول الجذام في باريس وكيف تعطلت ثلاثة أو أربعة من محركات الطائرة وكنا على وشك السقوط في المحيط في غضون دقائق وختم بقوله صدقا وكنا على وشك الهلاك والسقوط من الطائرة حتى أني شعرت بالخوف شعرنا أننا درنا حول العالم مرتين، مر يومنا الأول في باغوتا جيدًا وجدنا طعامًا في حرم الجامعة لكن القاعة كانت مزتح لأنها مليئة بالطلاب المبعوثين لأخذ دورات دراسية تنظمها الأمم المتحدة لا أرجنتيني بينهم بالطبع بعد الساعة الواحدة صباحًا وجدنا أخيرًا مكانًا في المستشفى وبذلك أعُفى كرسيّاً لقضاء الليلة عليه لسنا مغترين يائسين بل مكتشفين لهما تاريخ ومنزلة رفيعة ونفضل الموت على دفع أجرة نزل برجوازي مريح، بعد ذلك استضافتنا وحدة خدمات الجذام وإن نظروا إلينا بشك في اليوم الأول بسبب رسالة التوصية التي نحملها من بيرو – رسالة مديح لكنها موقعة من قبل الدكتور بيسي الذي يلعب في نفس مركز لوستو[1] وضع ألبيرتو شهادات مختلفة أمامهم ولم يملكوا الوقت لاسترداد أنفاسهم قبل أن أحاصرهم بالسؤال عن حساسيتي

(1) لاعب كرة أرجنتيني.

فتركتهم يصابون بالدوار والنتيجة هى أن قدمت وظائف لكلينا لم تكن عندي فيه للقبول لكن ألبيرتو ولأسباب بديهية أخذ ذلك في عين الاعتبار كنت أستخدم يد البيرتو فى رسم شيء على أرض الشارع بناء عليه تشاجرنا مع رجال الشرطة الذين أزعجونا جدّاً وعرض أن يقيم ألبيرتو وحدة وقررنا المغادرة معًا إلى فنزويلا على وجه السرعة لذا في الوقت الذي تصلك فيه هذه الرسالة سأكون على أهبة الاستعداد للمغادرة إذا أردت المحاولة اكتبي إلى كوكوتا سانتذيرديل نورتي كولوبيا أو بسرعة إلى باغوتا غدًا سأذهب لمشاهدة ميلليوناريوس يلعب ضد ريال مدريد في أرخص موقع في الملعب حيث الوصول إلى مواضعنا أصعب من الوصول إلى الوزراء يوجد قمع للحرية الفردية هنا أكثر من أي بلد قررناه، الشرطة في دوريات في الشوارع تحمل البنادق وتطلب أوراقك كل بضع دقائق ويمسكون بها مقلوبة رأسًا على عقب الجو متوتر ويبدو وأن ثورة تعتمل، الريف في تمرد مفتوح والجيش عاجز عن إخماده ليتحارب المحافظون في ما بينهم ولا يقدرون على التوصل إلى اتفاق وذكرى 9 أبريل / نيسان 1948م [1] ما زالت تلقي بثقلها على تفكير الجميع باختصار الجو حانق هنا إذا أراد الكولومبيون احتمال ذلك حظّاً

(1) حين قتل السياسي الليبرالي المتطرف جورجيه اليسوغايتان.

سعيدًا لهم لكننا مغادرون بأسرع وقت ممكن من الواضح أن الفرصة قد سنحت لألبيرتو للحصول على زكارأماس.

أتمنى أن يكتب شخص في بضع سطور ليخبرني عن حالك لا ينبغي عليك تجميع معلومات عبر الرسائل أو أي وسيط آخر في هذا الوقت (لا أجيبها لأننا نقتصر على رسالة واحدة من كل مدينة ولهذا فإن البطاقة التي أرسلتها إلى الفردينو جابيلا كانت ضمن الرسالة).

ضمة كبيرة من ابنك الذي يفتقدك من الرأس حتى أخمص القدمين أتمنى أن يستطيع الرجل العجوز الذهاب إلى فنزويلا مستوى المعيشة مرتفع أكثرها لكن الرواتب أفضل وهذا يناسب خسيسًا مثله بالمناسبة إذا بقي بعد العيش هنا إلى حين فسوف يبقى محبّاً للعم سام.. لكن دعينا لا نخرج عن الموضوع بإمكان أبي القراءة بين السطور.. وداعًا إنها رساله (تشى جيفارا إلى أمه)..

في الطريق إلى كاراكاس

بعد الأسئلة غير الضرورية التي لا مفر منها وتقليب جوازي سفرنا بخشونة ونظرات الاستجواب والشك التي يستمتها ضابط شرطة ختم المسؤول جوازينا بتاريخ مغادرة كبير 14 يوليو / تموز وانطلقنا على الأقدام عبر الجسر الموحد والمفرق للبلدين. جندي فنزويلي بالغطرسة المهنية نفسها لنظراته الكولومبيين ميزة عامة بين كل العسكريين كما يبدو فتش حقائبنا ثم استغل الفرصة لإخضاعنا إلى استجوابه الشخصى كي يرينا أننا نتكلم مع شخص عليه «سلطة» أوقفونا فترة طويلة في (سان أنتونيو دي تاتشيرا) لكن لمجرد إجراءات إدارية ثم داومنا رحلتنا في عربة كبيرة مغلقة وعدت بأخذنا إلى مدينة سان كريستويل كان في منتصف الطريق مركز جمارك تحملنا فيه تفتيش دقيق لكل حقائبنا وشخصيتنا عادت المدينة الشهيرة التي سببت لنا مشاكل جمة في بوغوتا كفكرة مهيمنة لنقاش طويل مع رئيس الشرطة أدرنا هذا النقاش بسلاسة أتقناها غير التعامل مع أناس يمثل هذه الثقافة العالية حافظنا على

هدوءنا لأنه كان داخل جيب جاكيتي الجلدي حزمة من الأدوية أرعبت ضباط الجمارك، كانت المدينة التي استعدناها بجهد سببًا جديدًا للقلق لأن مراكز الشرطة منتشرة على طول الطريق إلى كاراكاس ولم نكن متأكدين من أن نجد عقولاً قادرة على تحليل الأسباب الأولية التي قدمناها لهم فى الطريق التي تربط البلدتين الحدوديتين بشكل مثالي خاصة على الجانب الفنزويلي وذكرتني بالمناطق الجبلية المحيطة بقرطبة عمومًا تبدو هذه البلاد من كولومبيا مختلفة تماماً.

عند الوصول إلى سان كريستوبال نشب عراك بين أصحاب شركة النقل وبيننا لأنه من يريد السفر بأكثر طريقة اقتصادية ممكنة للمرة الأولى عليه أن يدفع أكثر في رحلتنا فرضيتهم الخاصة بفوائد السفر يومين بالعربة المقفلة عوض ثلاثة أيام في الحافلة ربحت في النهاية لحل هذه الأزمة المادية والعثور على معالجة جيدة قررنا المغادرة بدفع 20 بوليفاري إضافية مضحين بها على شرف كاراكاس شغلنا أنفسنا حتى المساء متجولين في الأحياء المجاورة والقراءة قليلاً عن البلد في مكتبة جيدة نوعًا ما كانت هناك.

في الحادية عشرة ليلاً انطلقنا إلى الشمال مخلفين وراءنا كل آثار الشوارع المعبرة في مقعد سيحشر فيه ثلاثة أشخاص جلس أربعتنا لذا لم تكن هناك فرصة للنوم الأسوأ أنه ظهرت عجلة مثقوبة

فى عجلات الدراجه البخارية ضيعت علينا ساعة وكان الربو ما زال يزعجني كنا مرتقين صعود القمة بضجر أصبحت الخضرة أكثر ندرة وإن كان بالإمكان رؤية أنواع المحاصيل نفسها في الوديان كما في كولومبيا كانت الطرق في حالة يرثى لها وتسبب عديدًا من الثقوب في العجلات في اليوم الثاني من السفر كانت هناك فقط شرطة تفتيش العربات بدقة على طول الطريق وكان يمكن أن نجد أنفسنا في ورطة لو لم تكن مع المسافر رسالة توصية ادعى السائق أن الحقائب لها ثمن تحميل وازداد ثمن الوجبة وأصبح بوليفار للشخص الواحد ثلاثة ونصف قررنا التوفير بقدر الإمكان لذا صمنا عن الشراب وعند موقف (بونتاديل أجويلا) السائق أشفق على عوزنا وقدم لنا وجبة جيدة على حسابه فى موقف (بونتاديل أجويلا) أعلى نقطة في جبال أنديز فنزويلا إذ تصل إلى 4108 مترًا فوق سطح البحر أخذت حبتين من الدواء معي جعلتا ليلتي تمر على خير في الفجر توقف السائق للراحة ساعة كاملة كان قد مر على قيادته الحافلة يومين دون توقف توقعنا الوصول إلى (كاراكاس) تلك الليلة لكن عجلاً مثقوبًا قام بتعطيلنا كما أن خطأ في الأسلاك أيضًا جعل أن البطارية لا تشحن فتوقفنا لإصلاحها أيضًا لمدة ساعة أصبح الطقس مداريّاً وكان هناك بعوض عدواني يحاربنا من كل صوب

كانت الرحلة الأخيرة التي غفوت خلالها في محاولة للتعامل مع هجمة ربو محترمة وبشكل جيد وبدت جميلة تلك الليله رغم ذلك (كان الظلام ترحل) حين وصلنا مقصدنا كانت السماء مضيئة، كنت في غاية التعب وسقطت في فراش استأجرناه مقابل نصف بوليفار ونمت مثل نمر بمساعدة حقنة أدرينالين قوية أعطاها لي ألبيرتو.

القرن العشرين الغريب هذا

يواصل تشى جيفارا سرد رحلته على الدراجة النارية قائلاً:

أسوأ هجمات الربو مرت ليلاً وأشعر الآن بصحة جيدة إلى حد ما وإن ألجأ أحيانًا إلى ما اكتسبته حديثًا وهو منشاق فرنسي أشعر بغياب ألبيرتو بقوة يبدو جانبي دون حراسة ضد هجمة مفترضة التفت بين لحظة وأخرى لأتبادل ملاحظة معه لأجد فقط أنه ليس هناك، لقد رحل ألبرتو عائداً وحده لقد أفترقنا فى كراكاس حيث عاد هو وأنا واصلت إلى ميامى الأمريكية في 27 يونيو ـ تموز 1951م.

صحيح ليس هناك ما يستدعى الشكوى : العناية بي كاملة طعام جيد متوفر بكثرة وأتوقع العودة للبلاد والدراسة ثانية والحصول على شهادة تؤهلني لمزاولة الطب مع ذلك فكرة الانفصال إلى الأبد لا تسعدني كل تلك الشهور التي قضيناها معًا جنبًا إلى جنب في السراء والضراء والتعود على رؤية الأحلام نفسها في مواضع مماثلة قربتنا كثيرًا من بعضنا وجدت نفسي وهذه الأسئلة تدور دومًا في فكري،

أهيم بعيدًا عن مركز كاراكاس بيوت تبدو متباعدة عن بعضها بعضًا. تمتد كاراكاس على طول الوادي الضيق الذي يغلق عليها ويقيدها في تلال حتى أنك في مشوار صغير ترتقي إلى التلال المحيطة هناك والمدينة المتقدمة مبسوطة تحت قدمي مقدار رؤية وجه جديد وجوه زينتها المتعددة منها السود تلك النماذج العظيمة للعرق الأفريقي المحافظ على عاداته بفضل عدم صلته بالجنس الأبيض والمحافظة على عرقهم الأفريقى وكذا وجود جنس ونوع جديد من العبيد البرتغاليين وبدأ العرقان القديمان الآن حياة قاسية معًا مليئة بالخصام والشجار وحدهما التمييز والفقر في الصراع اليومي للبقاء لكن أنماط نظرتهما للحياة فرقت بينهما تمامًا السود كسالى وحالمون ينفقون راتبهم الضئيل على الأعمال الطائشة والشراب. وللأوروبي تقاليد في العمل والتوفير في هذا الركن من أمريكا تقوده إلى الرقي بنفسه حتى باستقلالية عن طموحاته الفردية الخاصة. فالصراع بين الأوروبى والأفريقى الأصل واضح فى كل القارة الأمريكية.

في ذلك الارتفاع تختفي بيوت الأسمنت تمامًا وتهيمن بيوت الطين فقط أمعنت النظر في واحدة منها حجرة نصف مفصولة بقاطع مدفأة حائط ومنضدة وكومة من القش على الأرض ربما تستخدم كفراش عدد من القطط الهزيلة والكلاب الجرباء تلعب مع أطفال

سود عراة، صاعد من النار دخان لاذع يملأ الحجرة الأم السوداء ذات شعر مجعد وصدر مدلى تطبخ بمساعدة فتاة مكسية في الخامسة عشرة تحدثنا على باب الكوخ وبعد برهة سألت إن كان بالإمكان أن يقفوا لالتقاط صورة لهم لكنهم رفضوا تمامًا مثل ذلك إلا إذا أعطيتها لهم، في الحال حاولت دون طائل التفسير لهم أن علي تحميضها أولاً كلا يريدونها آنذاك وهناك أخيرًا وعدتهم تقديمها لهم في الحال غير أنهم الآن شكوا ولم يريدوا التعاون هرب أحد الأطفال ليلعب مع أصدقائه بينما داومت الحديث مع العائلة في النهاية وقفت حارسًا على الباب وآلة التصوير في يدي متظاهرًا أني أصور كل من يخرج رأسه سهونا قليلاً هكذا برهة فرأيت الصبي الصغير يعود مبتهجًا فوق دراجة هوائية جديدة ركزت الكاميرا وضغطت على زر التصوير لكن النتيجة كانت مأساوية ليتخلص من التصوير انحرف الصبي وسقط أرضًا منخرطًا في البكاء في الحال تخلوا عن خشيتهم من الكاميرا واندفعوا لقذفي بالشتائم انسحبت نوعًا ما خشية من شر مرتقب لأنهم رماة حجارة ممتازون وشتائم المجموعة تلاحقني بما في ذلك أقصى إهانة: «برتغالي».

تتبعثر على طول الطريق حاويات عربات نقل يستخدمها المهاجرون البرتغاليون بيوتًا لهم يمكنني أن ألمح في واحدة من

تلك حيث تعيش عائلة سوداء ثلاجة جديدة وتصدح في كثير منها موسيتس تبثها أجهزة المذياع بأقصى الأصوات ارتفاعًا عربات جديدة تقف خارج أكثر «البيوت» بؤسًا تمر من فوق الرؤوس كل أنواع الطائرات تبذر الجو بالضوضاء والانعكاسات الفضية بينما على قدمي تستلقى كاركاس مدينة الربيع الخالد التي تهدد مركزها أسطح الدخان الأحمر الغازية المجتمعة وأسطح البنايات الحديثة غير أن شيئًا آخر يسمح للون الأصفر في بناياتها الاستعمارية بالبقاء حتى بعد زوالها من خرائط المدينة : روح كاراكاس المنغلقة على نمط حياة الشمال تمد جذورها بعناد في أحوال ماضيها الاستعماري المتقهقر شبه الريفي.

(5)
نهاية الرحلة وبداية مناضل

ملاحظة في الهامش

يواصل تشى جيفارا سرد رحلته على الدراجة النارية عبر أمريكا اللاتينية ويقول: خطت النجوم ضوءًا في سماء ليل تلك القرية الجبلية الصغيرة وبدد الصمت والبرد العتمة بعيدًا كنت لا أدري أأنسى ذلك كما لو أن كل شيء صلب قد ذاب في الأثر ويقضي كل فرد به وينشر بنا بصرامة، لا سحابة في العتمة الهائلة تعبر منظرًا إلى الفضاء ليحجز أي جزء من السماء المليئة بالنجوم على بعد أقل من بضعة أمتار، فقد نور قنديل خافت قوته ليخبو في الظلام.

كان وجه الرجل غير واضح في الظلال يمكنني رؤية ما بدا مثل بريق عينيه وبيض أسنانه الأربعة الأمامية فقط. ما زلت غير قادر على القول أن كان الجو أو شخصية ذلك الفرد ما أعدني إلى البوح لكن أعرف من حالات عديدة وسمعت من ناس مختلفين المناقشات نفسها التي لم تترك قط في أي انطباع كان محاورنا في الواقع شخصية مثيرة للاهتمام إنه هرب من بلد في أوروبا من سكين الديمانموجية في شبابه حيث عرف طعم الحزن (إحدى

التجارب القليلة التي تعطي حياتك قيمة) وجال بعد ذلك من بلد إلى آخر جامعًا آلاف المغامرات حتى انتهى به الحال في هذه المنطقة المنعزلة منتظرًا بصير وصول لحظة الحساب العظيمة.

بعد تبادل بضع كلمات عديمة المعنى وتفاهات وكل منا يحدد منطقتين راح النقاش في التداعي وكل منا على وشك السير في سبيله، أطلق ضحكة مزاحية طفولية ملقيًا الضوء الساطع على أسنانه الأربعة الأمامية غير المتناسقة قال: المستقبل ملك الشعب وتدريجيّاً ستتحرر الشعوب المقهوره واحدة واحدة سيحولون على السلطة هنا وفي كل البلاد الأخرى الشيء المرعب أن الشعب بحاجة إلى التعليم وهذا ليس في متناول أيديهم قبل الاستيلاء على السلطة، يمكن بعدها فقط يمكنهم التعلم على حساب أخطائهم فقط وهذا ما سيكون مرعبا جديّاً ويكلف حياة أبرياء عدة أو ربما لا بما حياة هؤلا لن تكون بريئة لأنهم اقترفوا الخطيئة الكبرى ضد الطبيعة بمعنى عدم القدرة على التأقلم كل هؤلاء غير القادرين على التأقلم أنت وأنا على سبيل المثال سنموت ونحن نلعن السلطة التي نقاومها عبر التضحيات العظيمة لخلق جديد، الثورة غير شخصية ستأخذ أرواحهم وتستفيد حتى من ذاكرهم كمثال أو أداة لترويض الشباب الذين يتبعونهم، خطيئتي جسيمة لأني أكثر دهاء وأوسع خبرة سمها

ما شئت سأموت، وأنا على علم أن تضحيتي تنبع فقط من المرونة التي ترمز إلى حضارتنا الفاسدة المنهارة.. كما أعلم وهذا لن يغير مجرى التاريخ أو نظرتك لي أنك ستموت وقبضتك مطبقة ومتوتره صورة مصغرة للكرة والنضال لأنك لست رمزًا (مثالاً يفتقر للحياة) بل عضوًا أصيلاً في مجتمع سيدمر روح تغير النحل ويتكلم عبر فمك ويحرص على أمثالك، أنت مفيد مثلي لكنك لست مدركًا كم مفيد، إنها لك في المجتمع الذي يضحي بك» وهى كلمات إنسان غاصب ثائر.

رأيت أسنان ابتسامته العريضة التي يتنبأ بها ما سيجلبه التاريخ شعرت بمصافحته ومثل تمتمة بعيدة كان وداعه الرسمي، باغتني الليل المنطوي على كلماته ثانية لقي في ثناياه لكن بالرغم من كلماته علمت الآن.. علمت أن حين تشق الروح الهاوية العظيمة الإنسانية إلى شطرين متصارعين سأكون إلى جانب الشعب أعلم هذا أراه مطبوعًا في سماء الليل وأن المدعي الاصطفافي للمذهب والمحلل النفسي للعبيد الذي يعوي كشخص مسكون سأهاجم المتاريس أو الخنادق وسأحمل سلاحي الملطخ بالدم سأذبح أنا الذاوي في السخط أي سلطوى ويتبع بين يدي أرمي كما لو أن تعبًا هائلاً يكبح هذا الشعور غير السوي بالقوة.

أرى نفسي قربانًا في الثورة الحقيقية، المعادل العظيم لإدارة الأفراد المقر باقتراف أفدح الأخطاء سابقًا أشعر أن صدرى يتسع ليستنشق الرائحة اللاذعة للبارود والدم وموت العدو أنعم جسدي بعزم فولاذي وأعد نفسي للمعركة لتكون فضاء مقدسًا يستطيع من خلاله العواء الوحشي لانتصار البروليتاريا أن يدوي بطاقة جديدة وأمل جديد. وهكذا كان يتنامى شعور مناضل ثورى داخل تشى جيفارا أثناء رحلته هذه على الدراجة النارية. والتى انتهت بعودته إلى بلاده مرة أخري..

الخاتمـــة

وبعد حياة حافلة من النضال الثورى ماذا قال تشى جيفارا ؟

قال:

– ولدت في الأرجنتين ، وقاتلت في كوبا، وبدأت حياتي ثائرًا في جواتيمالا.

– هكذا أوجز تشي جيفارا سيرة حياته، وهي أيضًا سيرة قارة وقعت في تناقض بين حكومات رجعية وثورات طوباوية.

– كان جيفارا أول ثائر منذ أيام بوليفار يحمل خطة جدية لتوحيد مجموعة بلدان مقتتلة تدعى أمريكا اللاتينية وقد شهد في حياته من التطورات ما يثبت صحة نظرياته ونقيضها في آن واحد.

– قاوم جيفارا المولود عام 1928م بشدة تاريخه الماضي بوصفه سليلاً لعائلة إسبانية أيرلندية كانت لها امتيازاتها ومكانتها ومع ذلك فعلى الرغم مما يبدو على عائلته التي عاشت في المدينة الصغيرة (التا غراسيا) من تمسك ظاهري بالعادات والتقاليد فقد تميزت عائلته في الحقيقة بالتقدمية والنشاط والانفتاح الذهني وهو

ما أثر في تصرفات تشي جيفارا وسلوكياته ، لقد تصرف جيفارا كشاب عندما كان طفلاً، وتصرف كرجل عندما أصبح شابّاً كان إنسان واثقا من نفسه إلى حد لا يصدق، ومستقلاً في آرائه استقلالاً تامّاً ممتلئ شديد النشاط لا يعرف الكلل فضلاً عن تحرره من التقاليد والأعراف وكان في تصرفه ومظهره إنسانًا يفوق عمره كثيرًا وبدا واضحًا بأنه ينمو بشخصية واضحة المعالم ومزاج متقلب وسلوك غير منبط ومع هذا فقد كان تام النضوج وكان ينظر إلى المصاعب على أنها تحديات وأنه لابد من الانتصار على العقبات وتحطيم الحواجز ، وطغت على شخصية تشي جيفارا ميزة رافقته طوال حياته في كفاحه المبكر مع داء الربو فقد أصبح رياضيّاً بالرغم من نوبات الربو الرهيبة التي كانت تجبره على ترك ملعب كرة القدم كي يتناول الدواء، وفي شبابه أصبح جوالاً عنيدًا ورحالة لم يتوقف إلا عندما كان لا يقوى على التنفس، حتى إذا استرد أنفاسه تابع سيره وتجواله.

- أنهى دراسة ست سنوات دراسية جامعية في ثلاث سنوات فقط مجتازًا 16 امتحانًا في 6 شهور بالرغم من أصابته بـ 45 نوبة ربو، وكان لوفاة جدته بمرض السرطان ومكابدة والدته المرض أثرًا في نفسه وجهه إلى دراسة الطب ولم يكن طالبًا مكبّاً على الدراسة، وبعد

جولته على الدراجة البخارية التي كانت موضوع كتابنا وقع عقدًا للعمل كبحار في رحلة إلى البحر الكاريبي، مارس خلالها أعمالاً مختلفة من سائق شاحنة إلى حمال إلى طبيب ومنظف للصحون، كما عمل في وقت من الأوقات حارسًا لشركة تعدين أمريكة في تشيلي، وبعد مضي شهرين من تخرجه طبيبًا عام 1953م ترك الأرجنتين قاصدًا بوليفيا التي كانت تشهد ثورة هناك ثم ترك بوليفيا في شاحنة مع نفر من الهنود قاصدين (بيرو) ثم إلى جواتيمالا ثم إلى المكسيك لدراسة نظريات الثورة ثم إلى كوبا حيث التقى مع فيدل كاسترو في صيف 1955م حيث التحق بجماعة الثوريين المتفرغين وكتب جيفارا يقول «إن اقتناعي بالالتحاق بأي صورة ضد الطغيان لا يستغرق من الوقت إلا القليل) وكان زواجه الأول ثمن ذلك القرار وقالت زوجته: (لقد ضحيت بزوجي من أجل الثورة الكوبية) والشهور الـ25 التي قضاها في حياته في كوبا خلقت منه منظمًا ومفكرًا وخبيراً تكتيكيّاً شبيهًا بالبطل في مجال مقاومة الظلم والاضطهاد.. فقد عملت الثورة الكوبية على صقل تشي جيفارا سياسيّاً وأيديولوجيّاً وحولته صلته بالثوار إلى (منادي بإصلاح راعي يقوم على أسس ثورية) وكان مقتنعًا بأن الصراع الفعلي هو أفضل طريق لتعلم القتال وخلق رجل ثوري فالنظرية مهما بلغ شأوها لا تستطيع أن تضيع

مقاتلاً قديرًا وأن خوض التجربة في حرب ثورية هو الذي يصنع رجل العصابات الحقيقي ويميزه عن الحالم أو المتآمر في الخفاء وقد أعجبت أفكاره الشباب العربي أثناء (ثورات الربيع العربي) وارتدوا التيشرتات المطبوع عليها صور (تشي جيفارا) بل علق البعض على صدورهم بعض عباراته والتي أشهرها (ليس من الضروري دائمًا الانتظار إلى أن تنشأ حالة ثورية فهذه يمكن خلقها بنواة ثورية)..

- أصدر جيفارا كتابًا تحريضيّاً سماه (حرب العصابات) وهو كتاب يدعو فيه لحرب العصابات مؤكدًا أن حرب العصابات تصنع الثورة ذاتها وكان يدعو للاشتراكية مؤكدًا قوله (نحن الاشتراكيين أكثر حرية، لأننا أكثر تحقيقًا ذاتيّاً ونحن أكثر تحققًا ذاتيّاً لأننا أكثر حرية).

- وتعتبر يوميات جيفارا الكوبية أكثر كتاباته الطامحة بالشعور الإنساني والذكريات المفيدة وفي بوليفيا كانت نهايته المأسوية وهو يقاتل في صفوف المقاومة حيث أسرته القوات البوليفية واعتقلته وفي اليوم التالي 9 أكتوبر 1967م أعلن قتله واختفى جثمانه تمامًا إلى أن تم الكشف عن مكانه بعد ثلاثين عامًا في عام 1997م حيث أعيد رفاته إلى كوبا وإقامة نصب تذكاري له هناك.

المراجع

النص الأصلي لمذكرات أرنستو جيفارا

يوميات دراجة بخارية

مواقع عديدة على شبكة الإنترنت



فهرس المحتويات